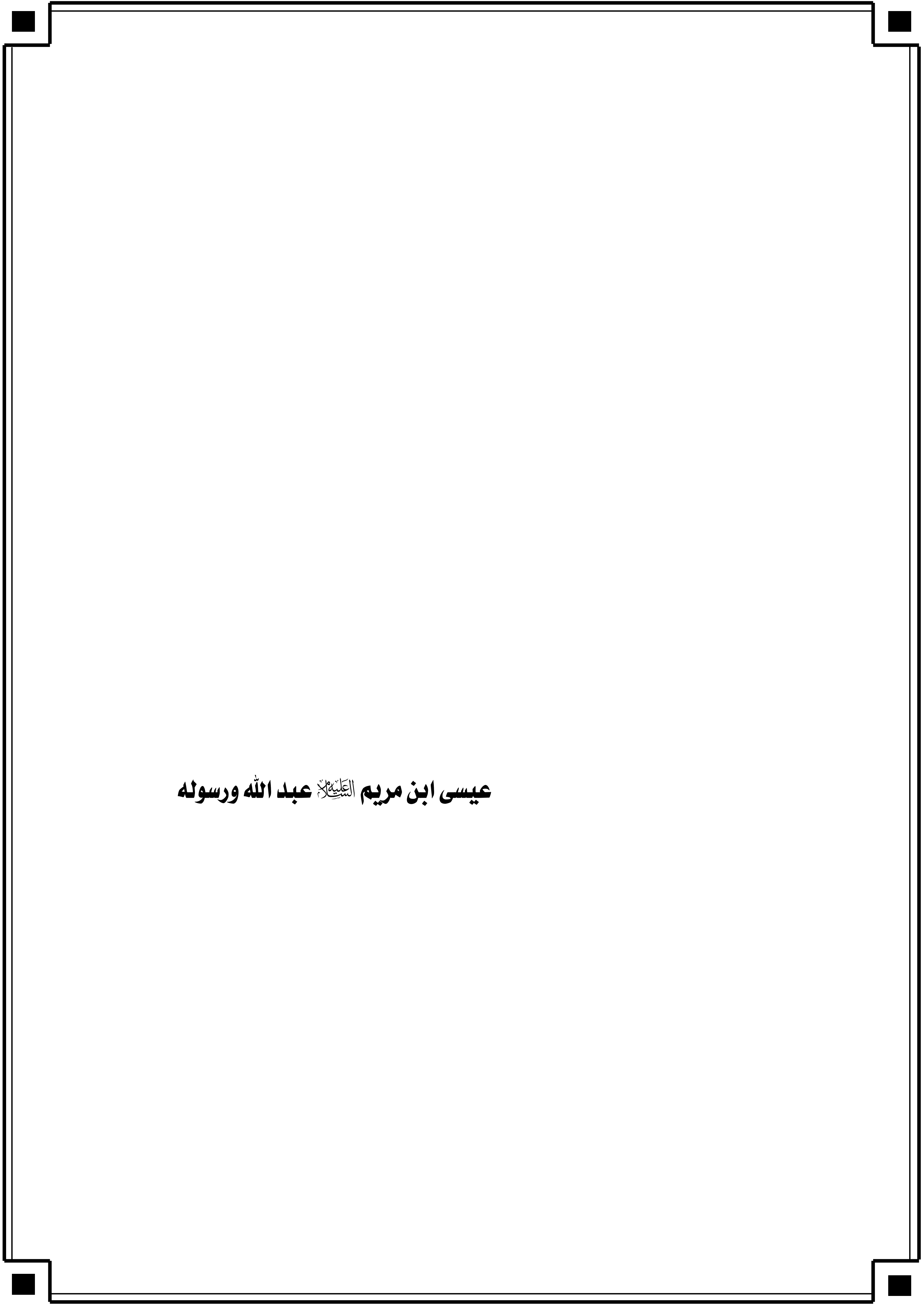


عيسى ابن مريم عليه السلام عبد الله ورسوله

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/١١/٣٩٨٠)

٢٢٨,٢٢٨
أبو شرار، محمود موسى
عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله/محمود موسى أبو شرار._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
(١٦٤) ص
ر.أ: (٢٠١٣/١١/٣٩٨٠).
الواصفات: /قصص القرآن//القرآن الكريم

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك ISBN 978 - 9957 - 77 – 192 - 8



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

عيسى ابن مريم عليه السلام

عبد الله ورسوله

تأليف

محمود موسى أبو شرار



دار المأمون للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾ [الإسراء: ١١١].

﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٥٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤ ﴾ [الصف: ١٤].

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٢].

قال رسول الله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله» رواه البخاري.

عن رسول الله ﷺ أنه قال الله تعالى: يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني ويكذبني وما ينبغي له أما شتمه فقوله: إن لي ولداً وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدني كما بدأني» رواه البخاري.

عن عبادة بن الصامت عن النبيّ ﷺ: «أن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ورح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» رواه البخاري.

عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله» رواه البخاري.

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أكرم أمة محمد ﷺ بالقرآن الكريم الذي حفظه من التغيير والتبديل من دون غيره من الكتب السماوية التي أوكل حفظها للبشر، فعاثوا فيها فساداً، وحكّموا فيها الهوى، والنفس الأمارة بالسوء، وشياطين الإنس والجن.

ومن فضل الله على العباد أن جعل – سبحانه وتعالى- القرآن مهيمناً على تلك الكتب؛ واضح التشريع، بيّن الأحكام، محكم الآيات. هو العروة الوثقى؛ يعزّ من آمن به وعمل، ويذل مَن هجره وقلاه. رفع به ذكر شعوب، أنار به قلوب الناس. أسعد به الطائع، أشقى به العاصي. فيه راحة البال، ووضوح الرؤيا، واستنارة العقل، وسكينة النفس.

يُقوّم به المعوج ويعدّل به المائل، وينير به السبيل فيه القصص الحق، والعظات البينات، والعلم النافع، والقول الفصل.

فيه الصورة الحقيقية لمولد عيسى ابن مريم – عليه السلام- والرد المقنع على أهل الغلو في خلقه وأهل التطرف والبهتان في وجوده.

فيه العلاج الشافي في الرد على من يرى النهار الأبلج ليلاً، والليل الدامس نهارا؛ وذلك في تشريع حكم المباهلة.

فيه براءة مريم العذراء – رضي الله عنها– وضمها لمن كمل من النساء المؤمنات الموحدات الطاهرات الطائعات الناصرات لدين الله.

فيه البشرى بنصر المؤمنين العاملين المجاهدين الصابرين على الكافرين المكذبين المفسدين في أرض الله الى أن تقوم الساعة.

فيه ذكر أنصار الله: جند الله، وسند الأنبياء المدافعين الأوفياء عن الدين الحق، الناشرين له. ثم ذكر ما ينتظرهم من خير وعزّ في الآخرة.

ما كان نبي الله عيسى ابن مريم - عليه السلام- آلها، ولا ابن اله، ولا هو شريك لله في ملكه لم يقتل، ولم يصلب، بل رفع حيّا الى السماء- بأمر ربه – ثم سيرجع فيملأ الأرض عدلاً كما ملأت جوراً، وسيؤمن به رسولاً نبياً بعض من ألّهه قال - سبحانه وتعالى – في ذلك: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء: ١٥٧].

ما خرج – عليه السلام – عن طبيعة معجزات الله، ولا عن نظام قدرة الله المطلقة؛ بل أن القادر على جعل النار المحرقة برداً وسلاماً على رسول الله إبراهيم - عليه السلام - قادر على أن يخلق طفلاً وبدون أب.

وأن من خلق من الصخرة الصماء الجامدة ناقة حيّة، تأكل وتشرب، وتسير وتبرك، وتُعقر فتموت أمام وتحت بصر قوم صالح – عليه السلام- قادر على أن يخلق في رحم مريم العذراء طفلاً نبياً رسولاً وبدون أب فالقدرة المطلقة لا حدود لها وإلا كما كانت مطلقة، وهي لا تقاس بمقاييس البشر المحدودة الضعيفة المخلوقة.

قال- سبحانه وتعالى- معرفاً لنفسه، مخاطباً لنبيّه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [سورة الإخلاص].

وهذه السورة هي جواب لسؤال المشركين لرسول الله محمد ﷺ؛ حيث قالوا له:« يا محمد انسب لنا ربك».

المؤلف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ١٦ - ٢٩].

=١=

مريم بنت عمران العذراء الصدّيقة

تلك هي العابدة التي أوقفتها أمها على خدمة بيت الله، وحررتها من الأعمال الدنيوية، فاتجهت نحو الحياة السعيدة الدائمة في جنة أُعدت للمتقين المحسنين الصالحين؛ وكما أرادت لها أمها الصالحة التقية زوج عمران.

فنشأت مريم هذه على طهر ذلك المسجد المبارك، والتربية العالية الدينية، فاجتمع فيها شرف الأرومة الصالحة، حيث تنتسب الى آل عمران الكرام الذين هم من الذؤابة من آل إبراهيم -الخليل عليه السلام-، وشرف التربية الطاهرة في أروقة المسجد المبارك؛ وبإشراف ورعاية نبي الله –زوج أختها -زكريا- عليه السلام - ويكفي شهادة رب العزة لها بالطهر والعفة والعبادة الصحيحة؛ وذلك قبل أن تحدث معجزة الولد بدون أب. وقبل أن تلوك سيرتها ألسنة يهود.

لم تنقطع صلتها بربها الذي يسر لها، وهداها سبيل المتقين، الطريق المستقيم. وقد كانت- وكما وصفها ربها – من القانتات العابدات لم تنقطع عن الصلاة والتهجد ليلها ولا نهارها، فهي منار العابدات الطائعات في ذلك المسجد المبارك.

لقد هيأها ربها، وأنبتها نباتاً حسناً؛ لتتحمل عبء المعجزة الثقيلة التي تنتظرها، والتي تنوء من ثقلها الجبال الراسيات: أم تلد ولداً وهي عذراء وفي مجتمع الفسق والفساد والكيد والمكر وبدون أب. وهي المعروفة لدى الجميع؛ وذلك لأنها خادمة المسجد، وربيبة ساحاته وأروقته ومحرابه.

- **لقد وقع الاختيار عليك:** أيتها الصدّيقة الشريفة العابدة من دون نساء الأرض؛ لتكوني أمّاً لهذا الطفل المعجزة: عيسى ابن مريم- عليه السلام-.

وكانت الفتنة والبلاء والامتحان الشاق في أغلى ما تملكه الحرة العابدة العفيفة الشريفة. ولد يخلق في أحشائها بلا أب وفي مجتمع بني إسرائيل، موطن الحسد والنفاق والفتن والكذب، وبإرادة الله وتدبيره، تخرج الى الخلاء؛ تنظر في ملكوت السماء والأرض؛ تسبح لله من على تلك الربوة الطاهرة المشرفة: ربوة بيت المقدس الشريف.

وتختار مكاناً خاليا لا يطرقه الناس عادة -تدبير الله- وتأخذ في التأمل والتفكر والتسبيح والنظر في ملكوت الله ومخلوقاته المتنوعة: من جماد ونبات

وحيوان، تلك المخلوقات الدالة على عظمة خالقها وراعيها العزيز الحكيم.

وتفاجأ برجل يقطع عليها خلوتها وتأملاتها وتسبيحها ويقترب منها فترهبه -كما هي عادة البشر والنساء خاصة في مثل هذا الموقف – فتلجأ للوعظ؛ وتذكير هذا الذي أخافها وأرعبها: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨].

وذلك لتثير فيه نوازع الخير، ليُحجم عن السير في طريق الشر والرذيلة هذا أن كنت مؤمناً تقيّاً مراقباً لله، ثم تخافه وتخشاه.

ثم يتأكد ما فكرت فيه، وما ظننته وحسبت له حسباناً عظيماً؛ وذلك عندما صرّح على ما في نفسه، فأجابها وعن قرب: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ [مريم: ١٩] .

يا لهول ما تسمع!! لقد تأكد ظنها، ولم تخطئ فراستها؛ فالرجل يتكلم فيما تخشاه وتخافه كل أنثى تخلو بذكر. قال رسول الله محمد ﷺ: «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»؛ ومن هنا حرّمت الخلوة بالرجل الغريب على المسلمات.

فتجيب وبحدة الحرة المؤمنة: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٠] هذا جواب المؤمنة الحرة صاحبة العفة والطهر فقد استبعدت وجود هذا الغلام، وبالطريقة المألوفة الطبيعية لأنها عذراء وهذا الغلام إما أن يكون بطريقة الحلال أو بطريقة الحرام، وكلاهما لم يحصل.

ولكن هذا الملك الذي هو في صورة إنسان، يوقف المناقشة، بقوله: ﴿... وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ...﴾ [مريم: ٢١].

ومن هنا وضح لها الموقف وان هذا الطفل سيكون معجزة غير مألوف النشأة والخلق وأنه سيكون رحمة للناس رسولاً نبيّاً، وهذا الأمر بالنسبة لخالق الخلق، الرب القادر، بارئ الخلق، وباعث الرزق هو هين.

وقد استعمل هذا الملك كلمات الاطمئنان والإيمان، وبين انه مرسل من قبل رب العالمين "ربك" الذي تعبدين وبه تستعينين، وله تصلين.

ويكون الحمل بنفخة من ذلك الملك في جيب مريم – وذلك بأمر الله ومشيئته وبكلمة منه – وتسير تقطع تلك التلال الصخرية؛ لتصل مكاناً بعيداً عن أعين الخلق، نائياً عن المدينة المقدسة.

هذا واستعمال حرف العطف «الفاء» المتكرر في هذه الآيات الكريمة: يستأنس منه أن فترة الحمل هذه كانت ايضاً معجزة مخالفة لطبيعة الحمل المعتاد عند النساء؛ لكونها فترة قصيرة جداً: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[مريم: ٢٢- ٢٣].

وقد لا يكون هناك فترة حمل أصلاً إلا مسافة تلك الطريق: بين تلك الخلوة والحمل وبين مكان وضع هذا الطفل المبارك كما يُستأنس ببعض الآثار عن ابن عباس – رضي الله عنه- في عدم وجود فترة للحمل.

ثم أنها لو حملت كباقي النساء لظهر ذلك عليها، خاصة وهي محط أنظار المصلين، ثم الذين يزورون ذلك المسجد المبارك الشريف.

أو لتسربت قصتها مع ذلك الملك لأهلها والمقربين منها خاصة وهي تتوقع ظهور هذا الأمر العظيم مهما أخفته، وذلك لما بشرها به ذلك الملك الطاهر.

ثم لما تفاجئ أهلها بميلادها، وأخذوا بتأنيبها بحدة وشدة. أو لعوقبت أو لطردت من المسجد أو لفضح أمرها قبل الولادة.

أو لكان ذكر القرآن الكريم بعض هذه المواقف خاصة وأن الله قد فصّل - في القرآن الكريم- قصتها بإسهاب وتوضيح تام. مع ذكر إرهاصات تلك المعجزة، وما سبقها من نذر أمها الكريمة الفاضلة، ومخالفة أُمنيتها بوضعها أنثى لا ذكر.

ثم تنازع الموحدين العُباد في من يكون له فضل الأشراف على حضانتها وتربيتها. وترزق فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.

وقد تربت في أقدس بقعة، وبين أنقى خلق الله، وأحسنهم سمعة، وأطيبهم ذكراً -في ذلك الزمن- في أروقة ذلك المسجد المبارك: ترمقها أعين الناس، فتعرف عنها، وتشهد لها بالصلاح والإستقامة والعبادة والعفة.

وتجلس تحت ظل تلك النخلة التي شرّفها ربها؛ لتظل هذه العابدة المؤمنة، تجلس وحيدة؛ تعاني آلام المخاض في مكان خال من البشر بل ومن أي مساعد

أو مؤنس، ثم التفكير فيما حصل وما سيحصل... وما ينتظرها من مواقف... والمعّرة... ولسان المجتمع الحاد، الذي لا يرحم. وكيف تجابه هذا الموقف ومن يصدق هذا الحديث الغريب؟ فتذهل أمام هذا الأمر، وتنطق متمتمة، متمنية الموت على مجابهة هذا الموقف العصيب. وصعوبة ألم المخاض، وما بعده، والإنهيار النفسي والجسدي.

- الصبر! الصبر يا ابنة عمران، الصبر يا سيدة نساء الأرض، أن عِظم البلاء هو من ارتفاع الدرجات عند الله. لهذا قرنت في الذكر الحسن والتضحية والصبر مع آسية امرأة فرعون الصابرة، وخديجة بنت خويلد الطاهرة المجاهدة.

وما هي إلاّ لحظات مرت كومض البصر حتى تكلمت المعجزة؛ فأزالت تلك الوحشة المخيفة المروعة، فتوقفت هزة المخاض. وما صاحبها وسبقها من هذا التفكير المرعب فاتجهت بسمعها ونظرها نحو ذلك الصوت الحنون صوت المعجزة بل صوت الأمان والدفء:

﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٤ - ٢٦].

الله أكبر... ما أقرب فرج الله! وما أعظم نعماءه ورحمته! هذه البشائر والإطمئنان وقرة العين، تطغى على بحر الخوف الطامي، والصواعق المزلزلة، والاضطراب النفسي، والانحطاط الجسدي.

هي ليست في حاجة - في تلك اللحظة – للاطمئنان النفسي فحسب بل هي في حاجة لإنقاذ جسد هدّه المخاض في برية موحشة: فراشها التراب، وغطاؤها سعف نخلة يكاد ظلها لا يغطي ساقها.

وتهز تلك النخلة المباركة - بأمر وليدها- فيأتي الرزق رطبا حلوا زاكيا، فتسعف به جسداً هدّه ألم المخاض وتشرب من تلك القناة حيث يسير ماؤها الرقراق الصافي، يسقي جذور تلك النخلة الخيرة المباركة، تلك التي شرفها ربها لتقدم الظل والرطب والستر لمريم العذراء البتول؛ كما شرّف تلك العين السائلة، لتروي جوفاً يكاد يجف ماؤه؛ بسبب موقف يتحول فيه الطعم الحلو مراً والرطب جافاً.

﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦]. ومن أين تأتي قرة العين، يا نبيّ الله؟ وأبناء القردة عبدة العجل، ونموذج الكيد والمكر والحسد؛ ينتظرون موقفاً كهذا؛

ليشعلوها حرباً ضروساً تحرق الرطب واليابس، ضد أهل التوحيد، عُباد الله في الأرض، ودعاة الدين القويم الصحيح. تلوك تلك الفئة الضالة عرض العذراء هذه؛ ليضعوا الشبهات والعراقيل أمام الدين السمح وكتاب الرحمة «الإنجيل» الذي أُمر هذا الغلام بتبليغه ونشر تعاليمه.

ثم ينطق هذا الطفل المعجزة بالحل الجذري لما فيه أمه البتول من حيرة وخوف من مواجهة الناس بهذا الوضع والذي تلفه الشبهات من جميع جوانبه.

ثم يتلو عليها شريط الحل بقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

هذا هو الحل والفرج لما أنت فيه وما تتوقعينه من حيرة أيتها الطاهرة العابدة ارتاحي وأغلقي أبواب الهواجس وبراكين الخوف وأسندي سلاح المجادلة في هذه القضية الشائكة المذهلة، فصاحب الشان سيدافع عن نفسه بنفسه- بما ألهمه الله – وقد أعطي المنطق القوي، والحكمة البليغة، والبرهان الواضح.

إن الصوم عن الكلام كان معروفاً في مثل هذه المواقف؛ فقد كان من معجزات سيدنا زكريا النبيّ – عليه السلام – والقوم يعهدونه: حيث صام عن الكلام مدة ثلاثة أيام – بأمر الله – وكانت النتيجة ميلاد يحيى – عليه السلام – المبشر به من أم عاقر وأب عجوز.

ثم تصل قومها تجر أقداماً واهنة؛ قد أضناها طول المسافة، وثقل الحمل، وجسماً أعياه المخاض، وطول التفكير في مصير لا تكاد تتصور نتيجته؛ وما يؤول إليه أمرها؛ عند قوم بُهت، لا يتعدى حكمهم على الأشياء رؤوس ألسنتهم.

ثم تكشف لقومها هذا الأمر العظيم، والحدث المذهل الذي يحتار في تفسيره الفهيم، وتتوقف لرؤيته الحواس والأعصاب.

وتبدأ قذائف الاتهام تنهال على مسمعها؛ لتصل خلايا الدماغ تنتظر الجواب الشافي لخفايا هذا الأمر العظيم نعم، لا مجال لسماع عذر بعد وضوح الحقيقة كشمس الضحى... من أين جاء هذا الطفل؟؟؟ ومن أبوه؟؟؟

إن وجهك الشاحب، وجسمك المنهار؛ ليجيب الجواب المروع المُحير. انه ابنك ولا شك. يا صاحبة العفاف! يا خادمة بيت الله الطاهر الشريف! أيتها العذراء العابدة ! يا من أوقفتك أمك على خدمة بيت الله! يا من تنافس علماء بني إسرائيل على تربيتك وخدمتك!!! ما العذر يا أخت هارون؟ أيتها الطاهرة

المصلية التقية!!!

وكما هي العادة في مثل هذه المواقف، يرجع الناس للأصل والفصل: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]. نعم، ونحن نشهد بطهارة الأصل والفرع.

ثم تتخلص من هذه الألفاظ الجارحة التي تدمي القلب، وتحطم الجسم، وتذهل العقل. فتشير إليه. فيزداد حنق وعجب القوم، فيستشيطون غضباً تسوقهم للشر والفتك بها وبوليدها رياح الغضب العاتية من هذه التي تشير لطفل رضيع؛ ليدافع عنها أمام هذا الأمر الخطير المُحيّر.

ثم يندفع قائلهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

- أتهزئين بنا فوق ما أنت فيه؟ أتصل السخرية والاستهتار بنا أن نخرق العادة والفطرة، ونكلم من في المهد صبيا؟...

ثم يسكن المكان بانتظار جواب شاف وتوضيح يكسر هذا الموقف الغامض. ويسير نسيم عليل يعلوه نفحة إيمان عطرة؛ وذلك عندما ينطق هذا الطفل الرضيع، وذلك بما يجعل العقول في حيرة وتشنج وذهول، فيحدق الجمع في هذا الطفل المُعجز الواعظ: موقف لا يكاد يُصدق، وأمر يضاهي الخيال فيتحسس كل نفسه، ويفرك عينيه، ويلتمس أذنيه، ليتأكد من نفسه، أنه بتمام وعيه، وأن هذا المتكلم الواعظ هو عينه ذلك الطفل الذي أحضرته مريم العذراء، وانه هو عينه المتكلم هذا.

الله اكبر ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] هي الكلمة الأولى التي لا تنسى؛ لتنقلها الأجيال بالتواتر، وتحملها الركبان من قطر لآخر: طفل رضيع يتكلم وينطق قائلاً: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠].

فأين العقول المستنيرة الذكية؟ أين النفوس العظيمة؟ أين الرأي السديد الذي لا يعكره حسد ولا يفسده هوىً؟ تكاد الجبال الصماء الراسية، والخلايا الحية النامية، بل الكواكب اللامعة في أفلاكها: تنطق بالفرحة لهذه الكلمة الحقة: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] لم يقل أني اله، ولم يقل إني ابن الله، ولم يقل إني ثالث ثلاثة؛ بل هو عبد الله كباقي أبناء آدم وأحفاده. واعترف لله بألوهيته وسلطانه.

قال الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى ابن مريم – عليه السلام-: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

وقوله – عليه السلام – ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾ كفعل ماضي يفيد التأكيد لما سيأتي، وما سيحدث له مستقبلاً من بعثه نبياً رسولاً، ومن تلقيه كتاباً فيه الخير والصلاح لبني إسرائيل؛ وهذا الكتاب هو استمرار لدعوة التوحيد في هذه الأرض؛ كما فيه التخفيف عن بني إسرائيل من بعض القيود والأحكام المحرجة الثقيلة التي قيدهم بها بعض أحبارهم حسب هواهم وهوى حكامهم والملأ منهم.

ويستأنف حديثه – عليه السلام– والقوم سكوت في حالة ذهول لما يسمعون من أنباء المستقبل، ومن الصبيّ القائل لهذه الأنباء، الغيبيّة المذهلة- وذلك بما ألهمه الله وأنطقه فيقول - عليه السلام-: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] هذه الصفة التي جمعت الخير والبركة والفلاح والعمل الصالح في كل أحواله: في سلوكه، وفي أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وارشاده الضال، ونصرة المظلوم، وتحدي الظالم، والأخذ بيد الضعيف، لينهض، والقويّ ليرحم، والعالم ليزداد علما، والجاهل ليتعلم. وهذه جميعها من صفات الأنبياء - عليهم السلام-.

ويستأنف حديثه - عليه السلام - بإبراز فرض هام فيه الفلاح الدائم، والصلاح المتجدد؛ تجدد الليل والنهار، والتوبة المستمرة، والطُهر من الأوساخ والأدران: فهو الجدول الذي يغتسل فيه المؤمن يومياً، ما دام حيّاً؛ وهي الصلاة: ذلك الفرض الذي يجعل المؤمن دائم الصلة بالله: ليل نهار، في اليسر والعسر، في السفر والإقامة، في الصحة والمرض.

وكما هي العادة في أمر الله بقرن الزكاة بالصلاة؛ فقد أُمر عليه السلام بأداء فرض الزكاة إذا أدركه التكليف، وحصل عنده نصابها؛ فتعطى لمستحقيها.

وهذه الآية الكريمة: تثبت أن الصلاة والزكاة كانتا مفروضة على الأمم السابقة لأمة الإسلام، كما فرضت على أمة الإسلام الماجدة المطيعة.

وقوله- عليه السلام-: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يفيد ديمومة فرض الصلاة والزكاة، لا يلغيها حاكم، ولا توقفها ظروف؛ فهي ملازمة، كفرض عين، لهذا المؤمن

ملازمة جلده لجسمه.

وهذا هو برنامجه القادم: فقد صبغه الله بصبغة البركة؛ فهو مبارك كل أحواله. وان الله قد أوصاه بالمحافظة على الصلة اليومية بالله: وهي الصلاة. ثم الصلة الدائمة بمجتمعه؛ بإعطاء المحتاجين حقهم من ماله، ومساعدتهم. وهذا الربط بين العبد وربه؛ هو أمر من الله؛ فمن قطعه فقد خالف شرع الله، وحمل الوزر، وغضب الله.

ثم صلته بوالدته التي تحملت المشاق من أجله حيث يقول: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٣٢].

فقد تحملت معه المشقة والتضحية والعناء من أجل مساعدته في ضعفه، واحتملت أسواط ألسنة القوم. فما جزاء الإحسان إلا الإحسان: فسيقوم ببرها، ولين الجناح لها واحترامها وتقديرها.

هذه المعاملة من الأبناء للأمهات لا تكون إلاّ للأمهات الطاهرات العفيفات الشريفات المستقيمات؛ فلو كان هناك ما يخل بطاهرة أمه البتول – كما اتهمها اليهود- لما شهد لأمه بالإحترام والتقدير، والإنسان طبع على النفور من الفاحشة، ومن يقوم بها، فقوله هذا هو أعظم شاهد على براءة أمه، بعد شهادة الله لها بالطهور.

وفي هذه الآية الكريمة إقرار واعتراف من عيسى – عليه السلام – بأنه خلق بدون أب؛ وذلك أنه لم "يقل بوالديّ" بل قال ﴿بِوَٰلِدَتِي﴾، ولو أنه ابن الله – كما يقول بعضهم – لقال: "بوالديّ".

ثم أظهر في برنامجه المستقبلي –عليه السلام– صفة لازمته طوال مكثه في الأرض، وهو يدعو قومه، وهي صفة الشفقة والرحمة؛ فلم يكن متكبراً متعظماً، ولم يغمط الناس حقوقهم. كما ابتعد عن نهج العنف والجبر حتى مع مخالفيه في الرأي. هذا ما طبقه أثناء دعوته وتبليغه لرسالته.

كما كان مطيعاً لربه، خلوقاً متواضعاً، رحيماً بقوم أمه حريصاً على هدايتهم، ولم يسر طريق الأشقياء الظالمين، ولا الفجرة المفسدين.

وفي ضمير "المفعول به"في الكلمات التالية: «آتاني، وجعلني، وأوصاني، ولم يجعلني» في الآيات السابقة؛ الإثبات القاطع في الإعتراف بأنه –عليه السلام– عبد الله، وما به من خير، وما أصابه من نعمة الكرام؛ فهو من فضل الله، وردّ على النصارى الذين جعلوه إلهاً، وذلك كفر وبهتان.

وقد ختمت هذه الآيات العبرة عن أعظم وأهم تنبؤات المستقبل؛ فقد ذكر – عليه السلام– لبني إسرائيل من المغيبات ما يذهل العقل، ويثبت الإيمان، وينير السبيل؛ كل هذا الخير والرشاد وهو طفل صغير رضيع؛ فقد ذكر لهم – وذلك بأمر ربه – أنه نبيّ رسول وسينزل عليه كتاب اسمه «الإنجيل» فيه العظات والعبر والحكم والأوامر والنواهي، وقد كان ذلك.

ثم ذكر لهم بعض سلوكياته المستقبلية، وعن سيرته وخُلقه، وكل هذا بهدي الله، وكرمه، وكلها من المغيبات.

أقول:خُتمت بإخباره عن نفسه، في حالات الإنسان الثلاث:-لأنه بشر كباقي الناس:فهو محفوظ ومحروس من نزعات الشيطان ومسه اثناء حياته- عليه السلام – وعليه الأمان في حالة وفاته كباقي البشر، ويقوم بعثه مع أبناء آدم يوم القيامة؛ لا يخفيه الفزع الاكبر: فهو في سلام دائم في كل أحواله وأزمانه- عليه السلام،

قال تعالى على لسانه – عليه السلام-: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم: ٣٣] .

هذه هي حقيقة نبيّ الله عيسى ابن مريم – عليه السلام– قال الله – سبحانه وتعالى – فيه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

فلا هو ملوث في نسبه وأصله؛ وقد مدحت والدته الطاهرة الشريفة البتول، ولا هو إله أو شريك لله في ملكه، ولا هو ثالث ثلاثة. وكل ما حصل له هو من فضل الله عليه وعلى أمه المختارة العفيفة.

وهذه الآية الكريمة هي الرد من الله على الذين يتنازعون في حقيقته، وفي معجزاته، ويعتمدون على الظن وعلى هوى النفس، ويقودهم الشيطان للشك والتردد؛ فيوصلهم أبواب جهنم، وساءت مصيرا ومُقاما.

قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥] .

لا تتفق صفات الألوهية مع شريك لله في ملكه؛ فكيف تتفق مع ولد لهذا الإله، فقد ترفّع – سبحانه وتعالى- عن أن يكون له والد أو ولد أو صاحبة.

إنما أمره في حكم هذا الكون مطلق، فعّال لما يريد؛ فهو يصنع ويخلق، ويغير ويبدل نواميس الكون والحياة كما يشاء ويريد.

ويقول رسول الله عيسى ابن مريم – عليه السلام-: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [مريم: ٣٦].

فمن يقول هذا القول: هو بشر مثلنا، مُقر لله بالربوبية والوحدانية، عابد لله، مطيع له؛ يأمرنا بعبادة الله وطاعته، وهذا هو الرأيّ الصحيح، والبيان الواضح، والصراط المستقيم، الموصل لأبواب الجنان، وحسُن ذلك مُقاما.

لم يقل – عليه السلام –أنا ربكم فاعبدوني، ولم يثبت عنه ذلك، وفي تخصيصه أن الله ربه رغم إنطباق "ربكم" على جميع المخلوقات وهو منها. أقول: فيه النفي لفكرة تأليه. وقد تصدر هذه الآية توكيداً بنفي الألوهية عنه. ثم قوله- عليه السلام- "فاعبده" أمراً جازماً بوجوب صرف العبادة لله وحده، وعدم الشرك.

قال الله - سبحانه وتعالى- يصف اختلاف قوم عيسى –عليه السلام–في أمره، ويتوعد المشركين: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

فقد اختلف أهل الكتاب في أمره - عليه السلام-: فمن مفرّط مقصر، يقول أنه ساحر وهم اليهود ومن مغال مفرط في أمره، وهم النصارى على اختلاف في الرأي فيه؛ فقد تناقضت أقوالهم فيه وفي صفاته وطبيعته. فقالت النسطورية منهم هو ابن الله، وقالت الملكية هو ثالث ثلاثة، وقالت اليعقوبية هو الله تعالى.

وقد ربطت هذه الآية الكريمة بين آراء هؤلاء الاحزاب المتنازعة وبين موقف الكفار يوم الحساب العظيم؛ وهذا من أشد أنواع التهديد والوعيد لهؤلاء الأحزاب الذين قالوا في عيسى- عليه السلام– ما قالوه مع كفرهم وشركهم بالله.

ثم وبصيغة التعجب يصف - سبحانه وتعالى – حالهم يوم القيامة: حيث قال - سبحانه وتعالى-: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [مريم: ٣٨].

فقد كُشفت الحقيقة لهم، وظهر المصير: يسمعون ويبصرون، وما الكفر والشرك إلاّ غطاء يُنزع يوم القيامة؛ وعندئذ تكون ساعة الحسرة والندامة، ولات ساعة مندم.

فمن ظلم في هذه الدنيا الفانية؛ فهو في ضلال مبين، ومن أشد وأعظم الظلم، أن توجه الشكر والخشوع والعبادة للمخلوق دون الخالق، وللمرتزق دون الرازق، وللفاني دون الباقي.

وصورة أخرى من صور يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، حيث يقول – سبحانه وتعالى- منذراً ومتوعداً العصاة والكافرين: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] .

يوم جزاء ولا عمل أهل النار يتحسرون على السير في طريق الضلال والمحسنون يتحسرون على عدم الاستكثار من الخير؛ رغم ما هم فيه من النعيم والغبطة.

هذا إنذار للبشر، ووعيد وتذكير لمن استنار عقله وتعمق فكره، فأبصر الطريق المستقيم، فاهتدى وسار فيه، وعمل بما أمر الله، وانتهى عما نهى عنه. واستقبل العظات بصدر رحب. وقاوم إغراء الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء.

ذلك الذي تصور منظر كتب الأعمال وهي توزع، والحسنات والسيئات بالميزان أمام رب عادل عزيز حكيم يتصور الأخ يفر من أخيه، والولد من أبيه، والصديق من الصديق. يتصور النار وهي تتوهج من قريب؛ تكاد تميز من الغيظ؛ وقودها الناس والحجارة.

يتصور أهل النار وهم يصطرخون فيها، يثغون فيها، هل من مجير أو شفيع؛ ولا مجير ولا شفيع.

وأما الأمر الذي قضي فيه فهو الحساب؛ وتوجه أهل النار للنار وأهل الجنة للجنة، ثم الخلود.

ورغم هذه العظات والنذر التي رحم الله بها عباده، وضعت في كتاب الله للعظة؛ فالبعض عنها غافل، والبعض بها كافر.

وفي البخاري ومسلم من كتب الحديث - صورة واضحة للحسرة يوم القيامة. فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش املح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون إليه فيقولون نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه؛ ثم ينادي يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون فيقولون نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه؛ فيؤمر به فيذبح ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ:

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وأشار بيده قال: أهل الدنيا في غفلة ويوم الحسرة هو يوم القيامة. وتختم هذه الآيات البينات بقوله- سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

هذه هي العزة والعظمة التي لا تليق حقاً إلا لله وحده؛ فهو وارث الأرض ومن عليها الذي أوجد الجميع، وحشرهم للحساب، فهم جميعاً راجعون إليه، ولا مفر من ذلك اللقاء المخيف المرهب، والوقوف أمام حاكم مطلع على السر وأخفى :عادل في حكمه، حكيم في إدارته؛ فهو العظيم، وقد صغُر العظماء أمامه، وهو الجبار فقد خنع بحضرته الجبابرة؛ وارث الأرض ومن عليها. قال سبحانه وتعالى-: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد سيجازي كلاً بعمله. ولا راد لحكمه وقضائه، هو الحي الذي لا يموت هو الأول والآخر.

=٢=

الملائكة تبشر مريم العذراء بمولد عيسى - عليه السلام -

قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦].

الملائكة تحمل بشرى من الله لمريم العذراء البتول العابدة الطائعة الموحدة، صاحبة السيرة الحسنة، والأرومة الطيبة؛ فهي من الصفوة المختارة من بني إسرائيل.

يخلق هذا الطفل بأمر من الله وبدون أب: اسمه المسيح عيسى ابن مريم، منسوباً لأمه، فلا أب له، صدّيق عليه مسحة الجمال من فضل الله عليه. صاحب جاه وشرف وقدر، من الصالحين المقربين عند الله، لطاعته، وصبره وجهاده في تبليغ رسالة ربه، وثباته على الحق.

سيكلم الناس طفلاً صغيراً وكهلاً كبيراً؛ وسيذكر بالصلاح والسيرة الحسنة، والخلق العالي، بين المؤمنين المتقين؛ وذلك لأن أهل الخلق الرفيع، والثبات على الحق، والصلاح الدائم بعضهم من بعض في الدين والفضل.

وفي كلمة "كهلاً» دليل واضح على رجوعه - عليه السلام - بعد رفعه إلى السماء، وإلا لما كان لكلمة "كهلاً" معناً، ما دام أنه تكلم في غير وقت الكلام الطبيعي.

قال الله - سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وقد هيأت هذه البشرى لسؤال مريم: أن كيف ألد ولم يمسسني بشر لا بحلال ولا بحرام؟!!

فيكون الجواب: إن قدرة الله مطلقة؛ فيخلق ما يشاء، وحين يشاء، وأمره نافذ؛ وكل ما في الكون طائع: مختار أو مُجبر.

ورغم، أن الذي نقل لها تلك البشرى من الملائكة، ولكن ولإيمانها واستنارة قلبها بنور الإيمان وبقرب الله من المخلوق، وجهت سؤال الإستفسار لله مباشرة فقالت: ﴿... رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ...﴾ [آل عمران: ٤٧].

ثم ما حواه هذا السؤال من لطف العبارة، وتحسس قرب المسؤول؛ فتناجيه مباشرة، وبلا واسطة، فلم تذهب لراهب أو حبر أو صنم ليتوسط بينها وبين ربها الذي تناجيه. هذا هو الإيمان الصادق، إيمان الموحدين.

وفي عبارة : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ولأن هذا الطفل بلا أب أصلاً، ناسبه كلمة الخلق. وفي قصة - زكريا وابنه يحيى- عليهما السلام ولوجود أب وأم قال: "يفعل ما يشاء» فيناسبه الفعل والقدرة.

ولإيمانها بقدرة الله المطلقة، وأنه يفعل ما يريد، ولا تنطبق عليه مقاييس المخلوقات المحدودة، أقول: توقفت عن النقاش؛ وقد عرفت أن الأمر فيه مخالفة لطبيعة الحياة البشرية، وهو معجزة؛ لا تنطبق عليها قوة البشر، ولا مقاييسهم.

ثم لقوة إيمانها، واستنارة قلبها، وتصديقها المطلق استجابة لأمر الله؛ خالق نواميس الطبيعة والبشر والكون يغير ويبدل كيف شاء، وحيث شاء.

وما علينا إلاّ الاستجابة والطاعة. فتوقفت عن السؤال، وسكنت نفسها، وسلمت أمرها لله.

ثم أخذت تستمع من الملائكة - رسل الله - عن أخبار مستقبل هذا الطفل، وعن مغيبات قادمة. حيث قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٨ - ٤٩].

هذا من تمام البشارة لمريم بالكرامة ورفعة المنزلة التي سينالها ولدها. وأن هذا المولود المعجزة المُبشر به: سيتعلم الكتابة والقراءة، وسيلهمه ربه قول الحق، والنطق بالتشريع، والسير في الخط المستقيم؛ في سلوكه وسيره في دعوته ونشرها.

كما يلهمه ربه تعاليم التوراة الحقيقية، كما أنزلت، وقبل أن تلعب بها عقول وأقلام الأحبار والمنافقين. ويبشّر بكتاب سينزل عليه اسمه «الإنجيل» فيه زيادة في الخير لبني إسرائيل، ورحمة جديدة بهم.

وسيكون هذا الطفل الذي تكلم وأفصح في المهد نبيّاً رسولاً لبني إسرائيل، مؤيداً بالمعجزات، وسيقول لهم: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ [آل عمران: ٤٩].

ومن هذه الآيات المعجزات: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ...﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقد ذُييل ذكر هذه المعجزات، بقوله تعالى: ﴿..بِإِذْنِ اللَّهِ ..﴾ [آل عمران: ٤٩]. وذلك حتى لا يتوهم السامع أن هذه المعجزات بعمل وتصميم وقدرة نبيّ الله عيسى - عليه السلام- وهي بأمر الله وقوته – سبحانه وتعالى- وما عيسى – عليه السلام – إلا منفذ. كما كان قبله موسى – عليه السلام- منفذاً؛ بتحويل العصا إلى حية. وكتوقف النار عن إحراق إبراهيم – عليه السلام- وقد ترددت كلمة "بإذن الله" بعد كل معجزة مما فصلته الآيات الكريمة، وذلك حجة ودليلاً على، أن نبيّ الله عيسى- عليه السلام - ليس بإله ولا ابن إله؛ بل هو رسول من البشر كباقي الرسل، محدود القوة والعمر والتصرف، فلا تردد ولا شك ولا مبالغة.

ومن معجزاته التي أوردتها الآيات بالتفصيل، أنه: يبرئ من يولد أعمى، ومن يصاب بالبرص؛ وقد خصهما رب العالمين بالذكر لأنهما أعجزا الطب وهو في ريعان قوته في ذلك الزمن.

كما أنه- وبقدرة الله – أحيا بعض الأموات، وكل هذا بإذن الله لا بقوته البشرية التي تعجز- عادة- عن القيام بهذه الأمور التي هي من اختصاص الخالق –سبحانه وتعالى- وهذه المعجزة ليست بدعاً في عالم المعجزات فقد سبقتها في عهد نبيّ الله موسى -عليه السلام- قصة البقرة وإحياء الميت، عندما ضُرب ببعضها.

ومن معجزاته: معرفة بعض المغيبات المحدودة التي طلبت بنو إسرائيل منه فعلها:كإخبارهم عما أخفوه في بيوتهم، وما أكلوه من طعام. وذلك بإذن الله، وفي كل هذا آيات لمن آمن وعمل وتفكر فاهتدى.

ويستمر -عليه السلام- في تبيان برنامج المستقبل، وذلك بما أوحى الله إليه. حيث

قال ﷺ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠] .

ثم يخبر- عليه السلام- بني إسرائيل؛ بأن ما سيأتي به هو استمرار لدعوة التوحيد وللكتب السابقة؛ فهو مُقر مصدق بالتوراة، وتعاليمها إلاّ ما وُضع من البشر فيها أو ما حذف منها، إتباعاً لهوى، أو لرغبات الحكام أو ما خففه رب العالمين - سبحانه وتعالى – من تعاليم، أو مما حرمته اليهود على أنفسهم، من عندهم وبدون أمر الله.

وهذه المعجزات والحجج والعبر تتطلب منكم التقوى والطاعة والشكر، والسير حسب هذه الكتب المقدسة، وما حوته من تعاليم وتشريع وعظات.

ثم يختم نبي الله عيسى - عليه السلام- هذه البشائر والحكم بأعظم وأهم خبر لأهل الأرض الذين غالوا في سيرته حتى أوصلهم ذلك للشرك والكفر والإختلاف والتردد حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

وفي هذا القول إقرار واعتراف منه - عليه السلام -: إنه بشر من أبناء آدم؛ وكل ما فضله الله به هو كرم من الله، ورحمة لبني آدم. فقد أقر بالربوبية وطلب من البشر عامة ومن بني إسرائيل خاصة عبادة الله. مبيناً أن هذا هو الصراط المستقيم، الموصل لرضى الله، المؤدي لأبواب الجنان.

=٣=

الحواريون يناصرون دين التوحيد

يخبرنا رب العالمين عن موقف وعلاج له؛ حيث أحس عيسى - عليه السلام - الغدر من بني إسرائيل، طلب النصرة وهي العلاج الناجح لهذا الموقف الخطر على الداعية والدعوة قال – سبحانه وتعالى-: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[آل عمران: ٥٢ - ٥٣].

فعندما ادرك تكذيب بل وغدر بعض بني إسرائيل، وتحجر العقول، وإعراض النفوس؛ طلب النصرة ممن يتوسم فيهم الخير والصلاح، للدفاع عنه وعن المؤمنين حتى يستطيع أن يبلغ رسالة ربه.

تلك النصرة التي افتقدها نبيّ الله لوط -عليه السلام- عندما أحاط قومه به يريدون عمل الفاحشة بضيوفه من الملائكة، فقال:﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

وتلك النصرة التي سعى لها رسول الله محمد ﷺ سنوات حتى وفّق في وجودها في المدينة المنورة عند الأنصار «الأوس والخزرج»، حتى أقام دولة الإسلام، وطبق شرع الله في الأرض وقاموا بحماية بيضة الإسلام؛ حتى انتشر دين الإسلام في الجزيرة، ثم في الأرض من المشرق للمغرب.

فكانت نصرة نبي الله عيسى - عليه السلام- هم الحواريون حيث قالوا: ﴿...نَحْنُ

﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ ...﴾ [آل عمران: ٥٢] أنصار نبيه ودينه.

وهذه النصرة تظهر قوة إيمانهم بالله، وثقتهم القوية برسالة التوحيد التي دعا إليها رسول الله عيسى - عليه السلام-.

وقد أشهروا إسلامهم بكل قوة وشجاعة؛ وقد اشهدوا نبيّ الله عيسى - عليه السلام- على إسلامهم.

فلو كانوا كالنصارى اليوم، يؤلهونه - عليه السلام - لقالوا: نحن ننصرك أو ننصركم أو ننصر أباك؛ بل قالوا: ﴿...نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ...﴾ [آل عمران: ٥٢] .

دليل قاطع على أن الإختلاف في ماهية عيسى - عليه السلام- حدثت بعد صعوده إلى السماء، وأما في عهده - عليه السلام- وعهد تلاميذه الكرام، لم تكن الفتنة قد ظهرت.

كما دعا الحواريون الله: أن يكتبهم، ويبعثهم مع الأمة الوسط، أمة محمد ﷺ التي اشتهرت بأنها ستكون الشاهدة على البشر يوم القيامة.

فهم لإعلانهم الإسلام، ولإيمانهم بالله وبرسله وكتبه، وإتباعهم رسول الله عيسى - عليه السلام - ونصرته: ضربوا كمثل في القرآن الكريم على نصرة دين التوحيد، وهذا فخر لهم ولمن سار على دربهم، ونهج نهجهم، فناصر دين الله، ونشره، وثبت عليه مضحياً بكل شيء في الدفاع عنه وفي قولهم: ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ إثبات على أن عيسى ابن مريم - عليه السلام- ليس بإله ولا هو ابن الله ولا هو ثالث ثلاثة، بل أنهم موحدون ليس لديهم أي شك بأن عيسى - عليه السلام - هو رسول من البشر كباقي الرسل وأن فكرة تأليهه لم تكن عندهم، وأن الفتنة في ذلك وإختلاف الآراء لم تظهر بعد عندهم.

قال الله سبحانه وتعالى – مخبراً عن مقدار كيدهم ومكرهم: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وأما من أحسَّ منهم الغدر والكفر به - عليه السلام - من بني إسرائيل فقد تواطؤوا على الفتك به - عليه السلام- وهذا هو مكرهم الذي ذكرته هذه الآية الكريمة، فجزاهم رب العالمين المطلع على مكرهم هذا بالإنتقام منهم وكشف سرهم، وفضحهم، وتخليص رسول الله عيسى - عليه السلام- من الصلب والقتل؛ ورفعه سالماً

إلى السماء؛ حيث ألقي شبهه على غيره؛ فكان غيره هو المصلوب، وهذا هو مكر الله.

قال الله- سبحانه وتعالى-: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[آل عمران: ٥٥].

هذه بشرى لرسول الله عيسى - عليه السلام- بالنجاة من مكر بني إسرائيل، فقد نجاه ربه من القتل والصلب وهذا من فضل الله على البشرية أن حل لغز نجاة نبيّ الله عيسى ابن مريم - عليه السلام - من الصلب. وكان للقرآن الفضل في تفصيل هذه الحادثة وتوضيحها؛ فقد ذكرت آيات القرآن الكريم أن الله قد طهّر نبيه عيسى
- عليه السلام- من فتك وغدر بني إسرائيل، ورفعه للسماء تقديراً له، ودفاعاً عنه، ونصر الموحدين الذين اتبعوا الدين الصحيح على الفئة الخائنة الكافرة الغادرة، وقد بشرت هذه الآيات الكريمة هؤلاء الموحدين بأن النصر لهم إلى أن تقوم الساعة.

وهذه البشرى تجعل العزة في الأرض لحزب الله دائماً والرفعة والقوة بيدهم، وأن الذل والصغار والشتات هو نصيب الفئة الباغية الغادرة الكافرة الفاسقة.

كما بينت هذه الآية الكريمة أن الله المطلع على الغيب سيفصل يوم القيامة بين تلك الفئات المختلفة في أمر رسول الله عيسى -عليه السلام- صاحبة الآراء المتناقضة فيه، فيندم أهل الشرك والأهواء حيث لا ينفع الندم

ومن التبشير بإستمرار دين التوحيد ومناصرته والدفاع عنه، ما تحويه هذه الآية الكريمة، ثم برجوع عيسى ابن مريم -عليه السلام- لهذه الأرض، ونصرته لدين التوحيد، وللفئة المؤمنة من الخلق.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله محمد ﷺ: «والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية، ولتُتركن القلاص» وهي الناقة الشابة «فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبض أحد».

والملاحظ على هذا الحديث الشريف أنه قد بدئ بقسم رسول الله ﷺ على أن هذا سيحدث.

ثم تكرر التوكيد في الأفعال المذكورة في هذا الحديث الشريف مما يجعل الثقة الحقة بما سيحدث. رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى.

قال - سبحانه وتعالى-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٦ - ٥٨].

وقد وصل التحذير والتنكير على الفئة الكافرة المقاومة لدين التوحيد أن يكون نصيبها الخسران والعذاب الشديد في الدنيا والآخرة. ومن خذله الله فلا ناصر له، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

والعذاب الشديد – كما ذكرت هذه الآيات – قد يكون في الدنيا بأيدي البشر حيث يسلطهم – سبحانه وتعالى– عليهم؛ فيذلونهم أو يقتلونهم، وقد يكون مباشرة من الله بتسليط قوى الطبيعة عليهم.

ولعذاب الآخرة اشد وانكى، نار وقودها الناس والحجارة. ولا ناصر لهم ولا مُغيث.

واما الفئة المؤمنة الصادقة التي أوقفت نفسها لنصرة دين التوحيد، ونشره في المعمورة، ودافعت عن أنبياء الله ودعمتهم ليبلغوا رسالات ربهم؛ فقد آمنوا بالله رباً لا شريك له في ملكه؛ وان الجنة حق، والنار حق، وعملوا الصالحات.

قد وعدهم - سبحانه وتعالى - بأجر عظيم. ومن أوفى بعهده من الله.

ثم تختم هذه الآية الكريمة بقاعدة هامة وتحذير عظيم للظالمين، فالظلم هو ظلمات يوم القيامة، والظالم سينال جزاء ظلمه: ﴿... وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

ومن فضل الله على أمة محمد ﷺ أن جاءت هذه العظات والتحذير آيات في كتاب الله؛ حُجج وعبر لمن استنار عقله، وخشع قلبه، فرأى العزة والصلاح في إتباع هدي الإسلام؛ فتمسك بهذا الدين حتى يتوفاه الله تقيّاً نقيّاً ثابت الإيمان، سائراً على خط الإسلام المستقيم، لا تثنيه رياح الفتن، ولا عواصف الفسوق والفجور، ولا تغريه الدنيا بزخرفها، ولا الشيطان بوسوسته.

والخطاب في هذه الآية الكريمة لرسول الله محمد ﷺ ليبلغ البشرية، لعل

فيها من يتعظ؛ فينجو من عذاب لا شك واقع على من حاد عن شرع الله، وسار طريق الفاسقين الظالمين المفسدين.

ثم تأتي الحجة الدامغة، والبرهان الساطع، والقول الحق؛ في رسول الله عيسى ابن مريم - عليه السلام - وذلك بقوله – سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فالله واحد أحد لم يلد ولم يولد؛ وأن الذين أشركوا وآلهوا عيسى - عليه السلام - هم أهل الشك والريب، المتخبطون الضالون، حزب الشيطان الرجيم، حيث أوصلهم شكهم، وفكرهم السطحي، لقولهم المتناقص، قال هو ثالث ثلاثة، وبعضهم ادعى أنه ابن الله؛ ظناً من أنفسهم، ولا برهان معهم فيما قالوه من الله. إذ كيف يكون ولداً بدون أب؟ وهذا ما وسوس لهم الشيطان.

فردّ عليهم رب العالمين؛ مبيناً لهم أن شبهتهم تلك التي أضلتهم شبهة باطلة مردودة، ووسوسة شيطان مارد أراد لهم الضلال والكفر؛ فهذا آدم - عليه السلام - أبو البشر - خلق من طين وبدون أب؛ فالله القادر على كل شيء، والقدرة المطلقة من صفاته التي أجمعت عليها الديانات. فلا مجال للبحث والمناقشة فيها. ومن يدعي أن لله شريكاً في ملكه، فقد أخل بمعنى القدرة المطلقة التي لا يتصف بها إلا الله الواحد الأحد تعالى عن التشبيه والتمثيل.

فهذه هي الحقيقة في خلق عيسى بن مريم - عليه السلام- التي يطمئن لها العقل وتسكن القلب، وتريح النفس قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠] والخطاب لرسول الله محمد ﷺ؛ ليبلغ هذا الأمر الشائك لأمته وللبشرية عامة؛ وذلك ليزيل غشاوة قد غطت الحقيقة؛ فتخبط النصارى خاصة والبشر عامة فيمن وُلد بدون أب؛ فالجواب لأهل الشك والزيغ، ممن أغواهم الشيطان؛ فسقطوا في شباكه، فضلوا وأضلوا. ومن حكمة الله أن عيسى عليه السلام لم يتزوج.

وبما أن رسول الله محمد ﷺ لم يكن من الشاكين في أمر عيسى - عليه السلام-؛ اذن فالخطاب تنوير وتبصير لأمته ﷺ، وتبكيته لمن ألّه عيسى بن مريم وقال فيه حسب الهوى والظن.

=٤=

آية المباهلة وحديثها

قال الله –سبحانه وتعالى -: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

والمخاطب في هذه الآية الكريمة هو رسول الله محمد ﷺ؛ يبين له ولأمته. سبحانه وتعالى الحل الناجح مع من يقلب الحقائق: فيصف النهار الأبلج بالليل الداج، والمرّ بالحلو، والقصير بالطويل؛ عناداً وكيداً وتكبراً ومكراً أقول: الحل مع هذا النوع من البشر؛ كما بينه الله – سبحانه وتعالى – لنا، هو الملاعنة وهي الإبتهال إلى الله بلعن الكاذب المفتري.

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة: «يأتمر نصارى نجران، ويختارون وفدهم من كبار العلماء والرهبان عندهم، ويسير هذا الوفد قاصداً عاصمة الدولة الإسلامية المدينة المنورة، حيث رسول الله محمد ﷺ ويتبادل هذا الوفد - اثناء قطعه تلك الطريق الطويلة الوعرة- الآراء وماذا سيقولون لمحمد الذي يسنده الوحي العظيم والقرآن الكريم؟ ذلك النبي الذي بشّر به نبيّ الله عيسى - عليه السلام- وكيف يُعمل على تعجيزه وإختباره؛ وقبل أن يمتد ذكره ونور دعوته، فيغطي على كل نور مصطنع، ويقوّم كل إعوجاج فمن وجد نور الشمس الساطع القوي استهان بنور الشمعة الضعيف. ومن وجد النبع الصافي عاف المشرب العكر.

ويتذاكر هذا الوفد في الخطر المحدق بدينهم وكنائسهم وصناعتهم وسيادتهم. فما عاشوا تلك الحياة الرغدة إلاّ لضعف من حولهم من العرب. فيقول قائلهم – ينبههم ويعظهم ويبين لهم ما هم فيه من خطر-.

لقد كانت النصرانية هي الفسيلة التي نبتت من أرومة شجرة التوحيد؛ تلك التي زُرعت بيد رسول الله إبراهيم - عليه السلام- وبأمر الله الواحد الأحد، فقويت هذه الفسيلة، وكبُرت، وامتدت جذورها في الأرض كامتداد ساقها وفروعها الباسقة في الفضاء الرحب، حتى غطت أو كادت أن تغطي على الأم التي سبقتها «شجرة اليهودية الموسوية». تلك التي هدّتها السنون والأيام. والعواصف

العاتية، والزمهرير القويّ، والسيول الجارفة، فذهبت نضارتها، وخشن لحاؤها، وضعف عودها؛ فما عادت أغصانها تغطي غير ساق هرم علاه الطحلب، وتآكل وأحاط به الجفاف، ونخره السوس؛ فتحوصل، ولم يمتد ولم يرتفع؛ لم يعد يخضر ويُزهر؛ فيجذب الناس لعطره الفواح، ولا لمنظره الجميل المغري الفاتن. فما يمنع أن تصبح هذه الفسيلة الجديدة التي نبتت وبسرعة مذهلة من أرومة شجرة التوحيد، تكون هي وريثة دين التوحيد هذا، وفيها ما يغذيها من تاريخ ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل -عليهما السلام- فهذا البيت الحرام لا يزال يجذب قلوب العرب من مشرق الجزيرة لمغربها؛ كما ويكن له الجميع التقديس؛ بل لا يرضى به العرب بديلاً.

ما يمنع أن تنمو وترتقي حتى تغطي على شجرة النصرانية الوارفة الظلال، الممتدة الأغصان؛ فتكون شجرة الإسلام هي الوريثة القوية لهذه الأرومة المقدسة، فتزهر ويجذب عبيقها الناس، ويمتد ظلها فيحتضن البشرية؛ تاركين شجرة النصرانية كما تُركت شجرة اليهودية الموسوية من قبل.

فالحذر! الحذر! من هذا الدين الجديد الذي يبهر الناس بسرعة انتشاره، وطيب ذكره، وحماس رجاله، وعدل نبيه. فها هو قد وصل هضبة الحبشة، ونال عطف ورضى ملكها، بل وتسرب لخاصة أهل قصره، ورجال الحكم عنده، وها هي الهدايا تصل من قبط مصر، من ملكها المقوقس لهذا النبي الجديد؛ دليل الحنو والإحترام، والتقدير والحب لهذا الدين ولرسوله. ثم ها هو هرقل العظيم صاحب الإنتصارات والجيوش الجرارة وعُمدة النصرانية في العالم؛ يحذر بطانته وقادته من هذا الدين الجديد الذي إن امتد سيأخذ الشام بعد الجزيرة العربية.

ويصل وفد نجران هذا مدينة النور، ومصدر الشعاع الذي أضاء تهامة حتى عم نوره الجزيرة كاملة.

ويلبس رجال هذا الوفد ملابس الفخر والكبرياء والعظمة تلك المزينة بسلاسل وأطواق وصلبان الذهب الأصفر اللامع، والأحذية والقلانس والتيجان المُذهبة التي تبهر الناظر، فتعشي النظر.

ولكن رسول الله محمداً ﷺ يعرض عنهم لما شاهده فيهم من لباس التكبر والخيلاء المغضب للرب، والذي لا يرضاه نبيّ الله عيسى -عليه السلام- لو رآه.

ويستشير هذا الوفد بعض الصحابة في امر اعراض الرسول عنهم – رغم ما عرف عنه من الرحمة واللين والتواضع- فيشيرون عليهم بخلع ملابس الخيلاء هذه، والرجوع للباس الطبيعي المتواضع. فيستقبلهم ﷺ وتبدأ المناقشة،

وتتركز على قصة نبي الله عيسى-عليه السلام- ومولوده وما اشتبه فيه من أمور، وما حصل فيه من اختلاف واضطراب وتناقض رأي: فمن متطرف في التقديس يقول: بتأليهه -عليه السلام- الى متطرف في التحقير والشك وبأنه ابن زنا وساحر.

ويحتدم النقاش، وتشتد المناظرة، وتكثر الإستفسارات من رجال ذلك الوفد. فينزل الوحي: يحمل صدر سورة آل عمران، فيها الشفاء لمن أراد ذلك، وفيها الوضوح لمن زالت الغشاوة عن عينيه.

قال الله – سبحانه وتعالى -: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 33 - ٣٤] وقد جيء بذكر آدم - عليه السلام - بالرجوع إلى الأصل الطاهر. ثم كيف وجد جدّ البشرية وبدون أم ولا أب؟ ومن هو خالقه؟ أنه الله القادر السميع العليم- وقد اجمعت الكتب السماوية على ذلك- وتُختم هذه الآيات الكريمة - بما حوت من معجزات بينات وإرهاصات بقوله – سبحانه وتعالى-: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فكما أنكم جميعاً- من يهود ونصارى ومسلمين - تؤمنون بأن آدم خُلق من غير أم ولا أب، فليس بغريب أن يولد عيسى - عليه السلام- بدون أب. والجميع يُؤمن بقدرة الله على ذلك كما ذُكرت في هذه الآيات من القصص والمعجزات والإرهاصات التي كان قد أجمع اليهود والنصارى على حدوثها قديماً وحديثاً: كقصة امرأة عمران ونذرها، وزكريا -عليه السلام- وامرأته العاقر، وربط لسانه عن الكلام مدة ثلاثة أيام.

ومريم العذراء، وأنها ترزق فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وأن يتكلم وليدها في المهد - عليه السلام- وكلها مخالفة لطبيعة الإنسان، وما اعتاده البشر. فآمنتم جميعاً بها، واختلفتم في خلق عيسى ابن مريم-عليه السلام - وكيف يكون بدون أب؟؟؟

فكان اسلوب المناقشة والقصص هذا يتفق والموقف المطروح فما داموا مؤمنين بما يحدث للرسل والانبياء من المعجزات بما يخالف الطبيعة المتعارف عليها. فلماذا لايؤمنون بمولده - عليه السلام - وبدون أب؟ ويؤمنون بقدرة الله المطلقة؟

وقد بدأت هذه الآيات. بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ ...﴾ [آل عمران: ٣٣] .

فموضوع القصص هو النسب الصافي والعفة المتوارثة لمريم العذراء فبين
- سبحانه وتعالى-: أنه اختار آدم - عليه السلام- جد البشرية، ثم نوحاً الجد الثاني للبشرية - عليه السلام- وكما هو مُلاحظ ذكرهما كأفراد. وأما آل ابراهيم وآل عمران فقد ذكرهما بشكل جماعي «أي ومن صلح من ذريتهما» لأن النبوة، ومنذ ابراهيم الخليل - عليه السلام- كانت متوارثة عند بني اسرائيل؛ ما يذهب نبي إلاّ ويخلفه نبيّ "كنظام الخلافة في الشريعة».

ويجب أن نذكر أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء في الأرض. وذكر آل عمران – رغم أنهم من آل إبراهيم – هو تشريف ودفعٌ عن مريم العذراء البتول تهمة الزنا التي تغنت بها ألسنة يهود.

ثم ذكر - سبحانه وتعالى- أنها تنسب إلى عائلة مختارة من قبل رب العالمين: هداة للناس، ونموذجاً للصلاح والتقوى وهذا الأمر قد آمن به اليهود – والله الشهيد العالم بصلاح أهل الصلاح؛ وهو الذي اختار هذا النبي الرسول عيسى ابن مريم – عليه السلام- من هذا الأصل الشريف الطاهر وليس بعد شهادة الله بطهر مريم العذراء من مجال لوسوسة شيطان مارد ولا لسماع لسان حاقد فاسق.

ويسمع هذا الوفد تلك الآيات التي بينت بكل صدق ووضوح قصة:امرأة عمران وزكريا النبي ومريم العذراء وعيسى المعجزة - عليهم السلام- هذه الآيات الواضحة المعنى التي عجزوا كما عجزت الأجيال اللاحقة بهم عن نقضها أو التشكيك بها. والتي جعلت أغلب رهبان كنيسة الحبشة وبلاط ملكها تفيض أعينهم من الدمع، لما عرفوه من الحق في تلك الآيات.

قال الله- سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

والمشابهة بين خلقهما هي القدرة الإلهية ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ . خُلقا من غير أب، وهذه هي طبيعة القدرة المطلقة التي لا يتصف بها إلاّ الخالق القادر، الرب الحقيقي.

هذه هي الحقيقة لأمتك. يا وارث دين التوحيد. يا رسول آخر الزمان. يا نبي الله. يا محمد عليك الصلاة والسلام. فلا يزيغ عنها إلاّ هالك، ولايكفر بها إلاّعاص هذا هو القصص الحق؛ لا ما تناقلته الكتب المحرفة، والروايات

الملفقة، وما لعبت به عقول البشر المتناقضة المنحرفة.

وقد حكم - سبحانه وتعالى- على وفد نجران هذا بعدم الدخول في الإسلام مسبقاً؛ وهو المطلع على السرائر وما تخفيه القلوب، المطلع على الغيب. فلم يوجه – سبحانه وتعالى – الوعظ والخطاب لهذا الوفد، بل وجهه لأمة الإسلام الماجدة، حاملة راية التوحيد، ونشر الدين في الأرض، وذلك حتى لايتسرب الشك لها كما تسرب لغيرها من الكتابيين.

ثم اختتمت هذه المناظرة بآية هي قاصمة ظهر الشرك والكفر والنفاق:وهي الحل الموافق أمام كل معاند عُتل يرى النهار الأبلج المُسفر ليلاً، والإستقامة اعوجاجاً، والحق باطلاً، والحلو مرّاً: تلك آية المباهلة؛ قال – سبحانه وتعالى – كوقف نهائي للمجادلة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] هذا هو الحل الأمثل أمام عناد الكفار: رغم وضوح الدليل، وقوة البرهان، والحجة الدامغة هذه هي نهاية المطاف عند تحجر العقول، وإغلاق القلوب فمن يرى الحقيقة الظاهرة البينة؛ فيطعن فيها، ويُعرض عنها والمباهلة هي الدعاء إلى الله بلعن الكاذب. وقيل أن جواب رئيس هذا الوفد لمن معه، ممن طُلب منهم تلك المباهلة؛ أنهم إن أقدموا فباهلوا رسول الله محمد ﷺ - وهم يعلمون - ولا شك- أنه الرسول المنتظر- اضطرم عليهم وادي نجران ناراً، حيث الأهل والولد. فإن محمداً نبيّ مُرسل، وأنه ﷺ جاء بالقول الفصل في أمر رسول الله عيسى ابن مريم - عليه السلام - ومن هنا تركوا المباهلة واتفقوا على دفع الجزية للدولة الإسلامية.

هذا وذكر الأبناء في الملاعنة، ولو أنهم صغار السن والنساء؛ ذلك لشدة الرحمة بهم، ولإثارة العاطفة عند الآباء الذين يريدون الملاعنة؛ ولأنهم إغلى من غيرهم والإهتمام بهم أعظم، والشفقة عليهم أكبر. كما أنها لفتة هامة بتوريث الأبناء دين الآباء، والضعاف الجهلة، وسيرهم نهج الكبار، وتقليدهم في دينهم وسلوكهم فمن هنا يكون ذنب وجريمة هؤلاء الملأ القادة عظيم عند الله؛ فعلى الكبار عدم تحميل الصغار والضعاف عملاً شائناً وتوريثهم الضلال والكفر.

قال- سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ

﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢].

هذه هي حقيقة عيسى ابن مريم - عليه السلام- لمن أراد القول الحق، والقصص الصادق، والحقائق البينة الواضحة.

كما وقد نفت هذه الآية الكريمة كل معبود غير الله؛ رداً على من أشرك وادعى أن لله ولداً أو شريكاً في ملكه.

والله هو صاحب الحكم المطلق النافذ، وهو الحكيم في إدارة ملكه، المستغني بنفسه عن غيره؛ لم يلد ولم يولد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣] فمن صُمت آذانهم عن سماع هذه الحقائق وتلك البيانات التي تزيل الغشاوة عن البصائر، وتولوا متكبرين متصلبين، هم أهل الفساد والعناء والله مطلع على النفوس والقلوب، وهو العالم بالمفسدين والظالمين.

قال الله - سبحانه وتعالى- مخاطباً رسوله الكريم محمداً ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

يأمر - سبحانه وتعالى- رسوله محمداً ﷺ أن يطلب من أهل الكتاب حلاً عادلاً أقرته الكتب السماوية جميعها. القاسم المشترك بينها: هو توحيد الله في العبادة، وأن لا تشرك بالله شيئاً.

ونحكّم شرع الله كما أنزل من السماء، وننتهي عن تحكيم الهوى، والنفس الأمارة بالسوء، ونحارب الشيطان وحزبه، فإن لم يستجيبوا لهذا الرأيّ الصائب، فنخبرهم أننا متمسكون بالإسلام ديناً وشرعاً، وخُلقاً وسلوكاً.

﴿....وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ...﴾ [آل عمران: ٦٤].

هو تبكيت وتجريم لمن اعتقد ربوبية عيسى ابن مريم والعزيز - عليه السلام- رغم أنهما بشرمن ذرية آدم -عليه السلام- كباقي الناس؛ أكرمهم الله بالنبوة، واصطفاهم لحكمة هو أعلم بها.

وكذلك ازدراء على من حكّم عقول الرجال المتناقضة فحللوا وحرّموا

حسب الهوى، والرغبة المطلقة وسواء كان هؤلاء الرجال هم أحبار أم رهبان أم قضاة فلا يجوز طاعتهم في معصية، أو طاعة الحكام والسادة والقادة في معصية الله. فمن أطاعهم وترك حكم الشرع فكأنه عبدهم من دون الله.

وفي كتاب رسول الله محمد ﷺ إلى هرقل ملك الروم مانصه: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا تعبدوا إلاّ الله ولا نشرك به شييئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» مسلم والبخاري والنسائي.

السواء: العدل والنصفه.

الأريسيين: الفلاحون وعامة الناس.

=٥=

إجماع الرسل وما أُنزل عليهم من كتب على توحيد الله

قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

إقراراً وتثبيتاً لرسالة رسول الله عيسى ابن مريم. وقد تبع ما سبقه من رسل الله بالدعوة لدين التوحيد.

وقد خص– سبحانه وتعالى- سيره على نهج التوراة الذي سبقه، وقد أنزل على نبيّ اليهود: موسى – عليه السلام- ثم يبين – سبحانه وتعالى – في هذه الآية الكريمة أنه قد أنزل كتاباً مصدقاً ومقراً تعاليم التوراة – إلاّ ما أراد سبحانه وتعالى- من تخفيف لبعض الأحكام، وتيسير على بني إسرائيل، وذلك من رحمته بخلقه، وهو الحكيم الرحيم.

وفي هذا الكتاب «الإنجيل» ما ينير للمؤمن طريق الخير والفلاح، ويهدي من اتبع تعاليمه الطريق المستقيم، وفيه من الهدى والعظات، ما يجعل السكينة والرضى والإطمئنان للمتقين.

ففيه تنوير للمؤمنين الذين يسيرون طائعين ثابتين على الصراط المستقيم الموصل لأبواب الجنان. فنبيّ الله عيسى - عليه السلام - قد اقتفى أثار من سبقه من الأنبياء في السير على نهجهم في التوحيد. وبأمر ربه أثبت ما أثبته الله في التوراة، وخفف ما أراده الله من تخفيف عن بني إسرائيل.

فقد نُسخت بعض أحكام التوراة، ولم ينسخ كلها لقوله – سبحانه وتعالى- في هذا الأمر: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقد يكون هذا الذي حرّم عليهم من رب العالمين أو من أنبيائهم بإذن الله، أو من أحبارهم. وكلمة "قفينا" تنفي عن نبيّ الله عيسى ما قاله فيه النصارى من غلو: بأنه إله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة فالله هو الذي خلقه وبعثه نبيّاً رسولاً، وهو كباقي الرسل والأنبياء، ممن اختارهم رب العالمين واصطفاهم لحمل

رسالاته؛ تلك الرسالات التي أضاءت لأهل الأرض طريق الفلاح والخير والعزة.

ثم يأمر رب العزة من نزل فيهم "الإنجيل" من بني إسرائيل بالعمل بما أمر بدون تحريف ولا تغيير ولا تبديل، فما نزل فيه إلاّ الصدق والحق والخير.

قال –سبحانه وتعالى-: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

ومع هذا الوعيد والتهديد فقد حرفته الأجيال والأحبار والرهبان بما يتفق مع أهوائهم، وأهواء حكامهم، والملأ منهم.

إذن فالمراد بالإنجيل في هذه الآية الكريمة، والمطلوب تطبيقه، ذلك الذي أنزله الله على نبيّ الله عيسى ابن مريم – عليه السلام – لا ذلك الذي مسته يد المحرفّين من أهل الضلال والمصلحة والزيغ حزب الشيطان الرجيم؛ فخرج مختلف الأحكام والقصص والعظات، بل والإعتقاد، متناقض الأفكار والآراء.

وقد أكدت هذه الآية الكريمة، وبكل عزيمة، وبأعظم أنواع التأكيد: «فإسم الإشارة، وضمير الفصل، والخبر المعرف بأل: تجعل الغضب الإلهي ينصب على من يترك الحكم بما أنزل الله، لأنه فاسق، خارج عن طاعة ربه. والآية الكريمة تفيد العموم؛ فهي تنطبق على كل من لم يحكم بما أنزل الله قديماً وحديثاً.

فمن لم يحكم بما أنزل الله من اليهود والنصارى والمسلمين والناس عامة؛ فقد أصابه النكال، وطوقته العقوبة، واتصف بالفسوق.

روى عن ابن عباس أنه قال في هذه الآيات الكريمة: «من جحد ما أنزل الله فقد كفر ومن أقرّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق».

هذا، ومما ورد في الإنجيل الصحيح الذي لم تلعب فيه الأيدي الآثمة؛ ولم يُحرف: صفات رسول الله محمد ﷺ. نبيّ آخر الزمان، وخاتم النبيين فإنكار رسالته كفر وظلم وفسوق.

ومما يثبت تحريف وتغيير «الإنجيل» كثرة الأناجيل بين يدي النصارى، وإختلافها وتناقضها. فكل حزب بما لديهم فرحون.

ثم يبين – سبحانه وتعالى- علاقة رسول الله عيسى - عليه السلام - بالتوراة الذي أُنزل على رسول الله موسى - عليه السلام – قبل رسالة عيسى ابن مريم عليه السلام.

ثم علاقة رسول الله عيسى - عليه السلام - بالقرآن وبالرسول محمد ﷺ بعد

رسالة عيسى - عليه السلام - فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وذكرهم يا محمد بما قاله لهم عيسى ابن مريم – عليه السلام-؛ بأنه رسول لبني اسرائيل، وليس إلهاً، فهو رسول من رب العالمين «وقوله يا بني اسرائيل" ولم يقل يا قومي كما كان يقول موسى – عليه السلام- لأنه ليس منهم – حسب العرف فليس له أب.

وما أرسل به من تعاليم لا يعارض ما سبقه من تعاليم التوراة التي كانت بنو اسرائيل تُجلّها، وتلتف حولها، وترجع اليها، وتعتز بها. مع أنه خفف ويسر بعض الأحكام التوراتية، وذلك – باذن الله-.

ثم يذكرهم ويبشرهم برسول يأتي من بعده اسمه أحمد؛ من الحمد والتي منها محمود ومحمد وحامد... الخ وجميعها تدل على أن هذا الرسول المبشر به، سيكون من العرب، من الأمة الأمية «وأحمد اسم علم منقول من صفة يراد بها التفضيل؛ فهو أحمد الحامدين لربه؛ وهذه مكرمة من الله حتى في إسمه ﷺ».

والضمير في «جاءهم» يرجع لأقرب الأسماء للفعل وهو كلمة "أحمد» والبينات هو القرآن الكريم، وقد أنزله الله على محمد ﷺ.

وكان جواب أهل الكتاب – رغم ما ذكره "الإنجيل" فيه وفي صفاته ومبعثه – أن هذا القرآن هو سحر ظاهر مبين.

وذلك من حسدهم وكيدهم وتكبرهم ولأن الله اختار رسولاً من ذرية إسماعيل، ولم يختره من ذرية اسحاق عليهما السلام.

ويمتدح - سبحانه وتعالى- موقف الحواريين: اصحاب نبيّ الله عيسى - عليه السلام - ويطلب من صحابة الرسول محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم: قال - سبحانه وتعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وقد كان، فقد لبى الأنصار هذا النداء، وقاموا بنصرة دين الله، حتى ظهر على غيره وقامت دولة الاسلام وانتشر هذا الدين فغطى غالبية المعمورة، بتأييد الله، وتكاتف المهاجرين والأنصار، حيث جمعتهم أخوة الإسلام القوية.

فكما لبى الحواريون نداء عيسى – عليه السلام – لبى الأوس والخزرج هذا النداء، حتى أصبحت مدينتهم عاصمة الدولة الإسلامية.

ثم يخبرنا – سبحانه وتعالى- عن موقف بني إسرائيل من دعوة التوحيد التي نادى بها رسول الله عيسى - عليه السلام - حيث قد آمنت منهم طائفة؛ فأيدها الله، ونصرها على طائفة الكفر. ونصرها – والعلم عند الله – كان بالبرهان وقوة الحجة، لا بالسيف والقتال لأن رسول الله عيسى - عليه السلام - لم يُؤمر بقتال الكفار، ولم يثبت أنه جمع الجيوش للحرب والقتال بل كان اسلوب دعوته اللسان. ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال إنما فرض القتال على ورثة دين التوحيد وهم المسلمون.

وفي هذه الآية ما فيها من تشجيع المسلمين وترغيبهم بنصرة هذا الدين والثبات عليه والجهاد المتواصل لحماية بيضة الإسلام، وتطبيق شرع الله ونشر دين التوحيد دين الإسلام في أرض الله.

يقول ابن عباس في تأييد الله للفئة المؤمنة ما نصه: «أيد الله الذين آمنوا في زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار» وذلك لأن المسلمين هم ورثة دين التوحيد. حيث يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ...﴾[آل عمران: ١٩].

قال الله - سبحانه وتعالى- في عيسى وأمه على أنهما حجة وعلامة على قدرته: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] إذ جعل من عيسى وأمه علامة وآية على قدرته المطلقة؛ حيث خلق عيسى من أم بلا أب، انشاء جسم من غير أهل، وأم تحمل وتضع في نفس اليوم؛ ويتكلم وليدها مبيناً أنه معجزة، ويذكر هذا الوليد لبني اسرائيل أنه سيكون رسولاً نبيّاً، أنه سيتلقى عن ربه كتاباً فيه الخير والحكمة والعظات اسمه "الإنجيل" وقد حصل كل هذا وكان.

وكل هذا يرجع لقدرة الله المطلقة، وحكمه النافذ. وقد نسبه لأمه لأنه خلقه بدون أب؛ بل بكلمة منه - سبحانه وتعالى-: كن فيكون.

وأما الربوة - فالعلم عند الله- أنها أرض بيت المقدس من أرض الشام

المباركة - المحيطة بمسجد بيت المقدس زاده الله تشريفاً وتعظيماً. وأما الإيواء فيه، فهو السكن المريح، والخير الدائم. فلا ترحال، ولا إنتقال في أرض مباركة، عظيمة الخيرات، معتدلة المناخ، كثيرة المياه والثمرات عن النبي ﷺ أنه قال:«يقول الله تعالى يا شام أنت صفوتي من بلادي وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي» فهي واسطة عقد الأرض.

وهذا من فضل الله على نبيّ الله عيسى وعلى أمه البتول العذراء العابدة أن يسكنا هذه الأرض، بإرادة الله وتوفيقه، وعظيم قدرته، وعميم فضله.

وفي هذه الآية المباركة مدح لهما ولأرض الشام المباركة؛ أرض المسجد الأقصى، وما حوله تلك التي بارك الله فيها حيث قال: سبحانه وتعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ...﴾[الإسراء: ١].

حمى الله المسجد الأقصى، والأرض المباركة، من كيد الكائدين، ومكر الماكرين ومن تعسف الفاسقين المجرمين، وتكبر الطغاة المعتدين الظالمين.

قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾[المائدة: ١٤] .

وقد عطف – سبحانه وتعالى- مواقف بعض النصارى على مواقف اليهود المخزية الفاسدة وإبراز كذبهم بادعائهم أنهم أنصار الله؛ وذلك بقولهم "إنّا نصارى"

وهم يدّعون أن لله شريكاً في ملكه وألوهيته. رغم العهد الذي قطعوه على أنفسهم، أن يناصروا دين التوحيد بإتباع رسل الله، والعمل بما في الكتب المنزلة من عند الله، والسير حسب أوامر الله؛ فتركوا بعض هذه الأوامر، ونصيباً من تلك العظات، وما بشرت به كتبهم التي نزلت على رسلهم، عن الإسلام دين آخر الزمان، وعن رسول الله محمد ﷺ خاتم النبيين وآخر المرسلين.

رغم أن الله ذكّرهم بما في كتبهم، وأوصاهم بإتباع رسول الله محمد ﷺ حين بعثه.

فكان أن عاقبهم ربهم في الدنيا بإلصاق صفة الفساد والكيد والمكر والعداء والبغضاء بهم؛ كما تلصق المادة بالغّراء، وسلط بعضهم على بعض، فلا مفر من الحروب والتدمير والكيد والفساد

وقد ذكرت هذه الآية كنوع من الإعجاز، وعلم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله – سبحانه وتعالى- أن العداء سيستمر بين فرقهم وأحزابهم وطوائفهم. وبينهم وبين اليهود خاصة إلى أن تقوم الساعة.

وقد ثبت ذلك وأظهرته القرون منذ أن نزل القرآن الكريم بهذه المعلومات الغيبية إلى اليوم.

فما زالت الحروب متتالية، وعبر القرون الطويلة، ورغم تغير وسائل القتال، وتقريب المسافات، ووسائل التفاهم، وتقدم العلم، وتعميم المعارف.

فكان وهم في ذروة إتفاقهم وإتحادهم، والتفاهم حول الكنائس، وإحترام كلمة رجل الدين عندهم، أقول: لهم عواصم مختلفة، وقيادات متنازعة، وعقول متناقضة، وكل يكيد للآخر.

حتى وهم يحاربون المسلمين: أيام الحروب الصليبية فكان للألمان قيادة متنافرة مع قيادة «الإنجليز والفرنسيين»؛ وحتى هؤلاء فقد تنازعت قيادتهم على مشارف بيت المقدس؛ التي جمعوا الجموع من أوروبا، وقاتلوا بضع سنين من أجل الوصول للقدس - بعد أن حررها صلاح الدين منهم - أقول: رجعت القيادتان لأوروبا بسبب النزاع بينهما.

كما أن نصارى أوروبا انقسموا إلى شرقيين وغربيين، ولا يزالون. ولا تزال مفاتيح أعظم كنائسهم بيد أسرة مسلمة منذ الفتح العمري للقدس إلى اليوم؛ لتنازعهم وإختلافهم حتى على أماكن العبادة.

والحروب الدائمة الدائرة ولاتزال الأيام تزيدها أواراً، والمنافسة على التسلح لتدمير العالم والحروب العالمية تحصدهم، وتحصد غيرهم؛ ممن يسير في ركبهم ويتبع سياستهم، ويتحزب معهم.

وما الدافع لكل هذا الفساد والإضطراب إلاّاختلاف الرأيّ والفكر والبغض والكيد والمكر والتعصب والتكبر والعناد وكل هذه الصفات لا يقرها رسول الله عيسى - عليه السلام - ولا كتاب الله "الإنجيل" وقد اكتمل فسادهم وتفتتهم وتنافرهم بالرجوع لنظام القوميات، والأصول العرقية، وإختلاف الأوطان، والتجمع والتكتل حول مفسدات المجتمعات ومفسدات المبادئ والدين.

وجعل الرابطة القومية المنتنة المبنية على الأصول العرقية المفرقة، والوطنية الضيقة الفاسدة؛ تطغى وتعلو على رابطة الدين والمبادئ الثابتة

الصحيحة، والأخوة المجُمعة المحُببة؛ حيث رجعوا لأجدادهم الوثنيين من اليونان والرومان.

فلكل رأيه الخاص في الدين والكنيسة، وحتى في الذات الإلهية؛ فالبعض يؤله عيسى ابن مريم، والبعض يكتفي بإشراكه مع الله في الألوهية والبعض يدعي أن عيسى ابن الله. فلم يجتمع لهم رايّ في نبيّ الله عيسى ابن مريم - عليه السلام - بل تضاربت آراؤهم؛ فهم في ضلالهم يعمهون، وسفاهتهم يتخبطون.

فحكم الله فيهم قاطع، يشهد له واقعهم: فبعض مذاهبهم لا تتزوج من المذهب الآخر؛ ولا تقر هذا الزواج إن وجد، وبعضهم يكفر ويلعن المذهب الآخر.فهذا «كاثوليكي» وهذا «بروستانتي» وهذا «أرثوذوكسي» ولكل أناجيله؛ ورأيه المستقل عن الآخر، فلا يظهر عليهم إلاّ التناحر، والعداء بل والقتال مما جعل الغالبية العظمى تتنكر للدين، وتهمل البحث فيه؛ وكأن الدين وأوامر الله لا تهم إلاّ رجال الدين الذين هم بدورهم قد اعتبروا، أنفسهم المحاسبين أمام الله يوم القيامة فقط. وكأن رسل الله وكتبه لم تُرسل إلا ّلهم خاصة، وأما عامة الناس فهم تبع.

وقد وعد - سبحانه وتعالى- بإخبارهم عن فسادهم هذا في الأرض، وكيدهم المدمر، وحقدهم الدفين، وتعصبهم البغيض. وكل هذا من صنعهم؛ إستجابة لأوامر الشيطان الرجيم، والسير حسب الهوى، والنفس الأمارة بالسوء، والسطحية في التفكير والتدبير.

فهذه الآية الكريمة تبين وتخبر وبكل وضوح أنهم صانعوا الفساد، والمصدرون له في العالم؛ فهم أعظم وأكبر وأخبث أهل الفساد والكيد والمكر.

ومن سار على نهجهم، واتبع طريقهم فهو مثلهم فكيف بمن يأتمر بأمرهم، ويسير مضبوعاً بأفكارهم ونظمهم؛ ضارباً بأوامر الله الصحيحة الحقة عرض الحائط، سائراً على غير بصيرة، مقلداً لهم في فسادهم وضلالهم.

يبرد قدمه لتدخل في نعل صنعوه بأيدٍ ضالة مُضلة. ويظن هذا المقلد لهم أنه يحسن صنعاً، وهو يغوص في بحر الفساد، مبتعداً عن شاطئ السلامة والأمان.

وفي هذه الآية الكريمة من التهديد والوعيد لهم؛ لتذكيرهم بما عاهدوا الله عليه من السير حسب ما ورد في كتبهم من البشارات والصفات لرسول الله محمد ﷺ ولأمته الماجدة، حاملة راية التوحيد إلى أن تقوم القيامة.

فطاعة رسول الله محمد ﷺ واجبة والإيمان برسالة الإسلام، والعمل بها هو الموصل لأبواب الجنان.

فضح أهل الكتاب والرد على قولهم أن أنبياءهم أبناء الله

قال الله – سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة: ١٥].

ويخاطب النصارى كما يخاطب اليهود في هذه الآيات الكريمة، مُذكراً تَيْنِكَ الفئتين أن محمداً هو رسول كباقي الرسل قد اصطفاه ربه لتبليغ رسالته، للناس كافة عجمهم وعربهم

وفي كلمة «رسولنا» أعظم وأجل علامات التكريم؛ حيث أضاف اسمه – سبحانه وتعالى- لاسم رسول الله محمد ﷺ؛ لتذكيرهم وتنبيههم إلى أن محمداً مُرسل مختار من الله للبشرية عامة؛ ليبين للبشرية ولهم خاصة، ما كانوا يخفونه أو يُحرفونه من علوم الكتب المرسلة لهم من الله. فقد فضحهم وشهر بهم – سبحانه وتعالى- وذلك لتماديهم في الباطل، وانحرافهم عن الحق. وكان فضحهم من خلال آيات القران الكريم الذي تتوارث الأجيال علمه وتكريمه إلى أن تقوم الساعة. والله لا يستحي من الحق، وهو الحكيم العليم.

ويترك سبحانه وتعالى ذكر بعض جرائمهم وزلاتهم؛ لكثرتها، وتنوعها؛ وهذا ابلغ ما ذكرته هذه الآية من فضائحهم. فلا تحديد لجرائمهم، فمما ذكر لنا منها: تحريف وإخفاء بعض أوامر الله، وصفات محمد ﷺ وأمته الماجدة، وقتلهم الأنبياء، ونسب الفاحشة لبعضهم –رغم عصمتهم عليهم السلام- والفساد والفتن هو اكثر مما اظهر – سبحانه وتعالى-

وقد عبر - سبحانه وتعالى- عن تعاليم القرآن الكريم بأنها نور؛ وهذا النور هو تطبيق شرع الله وتوضيح وبيان آياته أثناء حياة رسول الله ﷺ؛ تلك الآيات التي أنارت طريق الخير لمن اهتدى بهدي هذا الدين.

وأما «الكتاب» فهو القرآن الكريم الذي هيمن –بإذن الله- بتعاليمه على الكتب السابقة، وإبرازه كمصدر عظيم لتوضيح شرع الله الذي طبق في حياة رسول الله محمد ﷺ.

كاملاً منيراً للبشر والأجيال طريق الخير والصلاح لمن أراد الفلاح لنفسه ولغيره إلى أن تقوم الساعة.

قال الله – سبحانه وتعالى- مبيناً طرق الهداية، مرشداً لسُبل السلام، الطريق المستقيم الذي بينه ووضحه في القرآن الكريم: ذلك الذي يُخرج البشر من ظلمات الشرك والكفر، إلى نور الإسلام الموصل لأبواب الجنان ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

هذه الآية الكريمة هي توضيح لما ورد في الآية السابقة، برفع قيمة آيات كتاب الله المنقذ للبشرية من لهيب جهنم وسعيرها، المنير طريق الخط المستقيم؛ برحمة الله وبفضله.

فقد وعد – سبحانه وتعالى- بهدي ومساندة من جعل رضوان الله غايته وهدفه في هذه الحياة الدنيا، وضمن له السير في طريق السلامة الموصل للعزة والراحة الأبدية، والخلود في جنة عرضها السماوات والأرض، بجوار رب رحيم كريم شفوق.

رب يخرج من أراد الهداية وسعى لها من مستنقع الكفر والفسوق والعصيان، وما فيه من ضلال وظلام إلى الطريق الواضح البين. صراط الذين أنعم عليهم.

وكل هذا الخير والرحمة والتكريم والتوفيق بالسير في طريق السلامة، هو بإرادته وتوفيقه وهديه – سبحانه وتعالى-.

قال الله – سبحانه وتعالى- مبيناً قدرته المطلقة، وأن العزة له وحده، وأنه الحاكم المتصرف في الكون. وقد استعمل لغة التهديد والوعيد، فاقسم بأن الذين قالوا:أن المسيح ابن مريم هو الله كفار كاذبون:﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧].

الكفر: هو تغطية الحقيقة؛ فقد أكدت هذه الآية الكريمة بتكفير من يُؤله المسيح، ويحول توجه العبادة للمخلوق بدل الخالق، وللفاني بدل الباقي، وللعاجز بدل القادر، وللضعيف المحتاج بدل القوي الغني.

والضمير «هو» في هذه الآية الكريمة هو: للتخصيص؛ فقد خصوه بالألوهية افتراءً على الله وظلماً وفسوقاً.

وما من إله إلاّ الله الحق، الواحد الأحد سبحانه. فكان الرد من رب العامين - سبحانه وتعالى- عنيفاً مخيفاً مرهباً، ليس لهم فحسب بل لمخلوقات الأرض عامة، فالله الخالق هو الوحيد القادر أن يهلك جميع ما في هذه الأرض من مخلوقات. وأن يُهلك المسيح وأمه؛ فلو كان المسيح ابن مريم – عليه السلام- إلهاً حقاً- كما تدعي النصارى لما هلكت أمه؟ فلو كان هو الفاعل؛ وحسب معايير البشر، لكان ظالماً عاقاً مجرماً، يقابل المعروف بالمتلوف، والحسنة بالسيئة. وجميع هذه الصفات الشريرة ليست من صفات الإله الخالق العادل الحكيم الرحيم.

وقد اردف - سبحانه وتعالى- هذا التهديد، والوعيد والغضب؛ بإظهار مالكه، وعظيم قدرته؛ فهو مالك السماوات على اتساعها، والأرض على دقة صنعها، ثم ما احتوته تلك المسافات البعيدة بين هذه الأرض وتلك السماوات، وما فيها من مخلوقات وذرات سابحة، وما حوته من طاقة عظيمة مرهبة.

«يخلق ما يشاء» والقادر على الخلق، قادر على الإفناء وجميع هذه الصفات الكمالية لايتصف بها آدم عليه السلام الذي خلق بدون أب ولا أم. ولا عيسى ابن مريم -عليه السلام- الذي خلق بدون أب ولا من خُلق من البشر بأم وأب.

ثم تختم هذه الآية الكريمة بقاعدة من قواعد الأيمان وهو الإيمان بصفات الله وأسمائه الحسنى؛ وهي القدرة المطلقة الشاملة التي لا تحدها حدود، ولا تعيقها سدود.

وأما نبيّ الله عيسى ابن مريم – عليه السلام- فقد كان محدود القُدرات، تظله السماء، والأشجار، وسُقف البيوت، وتجذبه الأرض على سطحها، ويستنشق الهواء، ويشرب الماء، ويأكل الطعام، ويخاف البرد والحر: فهو محدود محتاج كباقي مخلوقات الله؛ يختفي من مطاردة اليهود له فيأوي إلى الكهوف، ويحتاج الدابة للركوب، والتنقل من مكان لمكان؛ فهو مخلوق كباقي البشر كرّمه ربه ليكون نبيّاً رسولاً يسير في طريق الخير، ويدعو البشر للسير فيه؛ للنجاة من غضب الله وعصيانه ومن نار وقودها الناس والحجارة.

قال الله - سبحانه وتعالى- في الرد على اليهود والنصارى أن من أحب الله

أطاعه واتقاه، وأن الله لم يلد ولم يولد وأن الأنبياء هم من البشر، ومن ينتسب لهم هو بشر مثلهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨] .

ومن نعم الله وفضله على محمد ﷺ وعلى أمته الماجدة الطائعة؛ أن علمنا كيف نرد على اليهود والنصارى في افترائهم وكذبهم وتبجحهم، وذلك عندما رأوا لانفسهم فضلاً على الناس؛ لكثرة أنبيائهم فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. فأمرنا –سبحانه وتعالى- بالرد عليهم بحقائق هم يؤمنون بها جميعاً، وهي مسطرة في كتبهم: ومن هذه الحقائق: تعذيب الظالم المجرم المعتدي المذنب منهم ومن غيرهم بلا تمييز. فلو كانوا حقاً أحباء الله وأبناءه لما عذبهم بذنوبهم هذا التعذيب، ومسخ بعضهم في الحياة الدنيا فوق ما ينتظرهم جميعاً من عذاب يوم القيامة، لشركهم وكفرهم وفسوقهم وتكبرهم.

إذن ليسوا أبناء الله من دون البشر بل هم من البشر؛ تطبق عليهم نواميس البشر – وما كثرة الأنبياء عندهم إلاّ لكثرة عصيانهم -: فالمطيع التقي له الجنة، والعاصي الكافر له النار قالت اليهود: لن ندخل النار إلاّ أربعين يوماً، وقيل سبعة أيام. إذن هم يعترفون بأنهم معرضون للعذاب بالنار؛ حيث قال – سبحانه وتعالى- على لسانهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ ...﴾ [البقرة: ٨٠] كل هذا بفضله وعدله - سبحانه وتعالى- قال: سبحانه وتعالى: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ...﴾ [الحُجُرات: ١٣].

فالميزان العادل هو التقوى وأن نظام ظالم لا يقره الله الخالق، ولا تقره رُسُله بل قد قاومه الموحدون ورُسل بني اسرائيل؛ فهم يؤمنون بعدل الله ورحمته الشاملة، كما في كتبهم. فكيف يدعون أنهم طبقة مُكرمة وبدون عمل؟ لنسب توهموه وشافعٍ ومنقذٍ اختلقوه.

قال محمد رسول الله ﷺ في هذا الأمر «... يا فاطمة بنت محمد... لا أغني عنك من الله شيئاً...» قال هذا ﷺ وهو يخطب على صخرة الصفا أمام عشيرته وقومه بمكة المكرمة. وفاطمة هذه هي أحب بناته إليه؛ فينطق بإسمها في عظيم المواقف ولا يغني يوم القيامة نسبها، ومالها إلاّ عملها.

وتؤكد هذه الآية الكريمة، كنوع من التهديد والوعيد –لمن يشرك بالله-

فليذكر مصير المشركين، وغضب الله، وإنتقامه المحيط بالظالمين.

وأن القادر المالك للكون من سماوات وأرض هو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، لا شريك له، ولا شبيه ولا مثيل.

وسيقف الجميع أمامه - سبحانه وتعالى- للحساب يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة. وأكرمهم يوم ذاك هو التقي. فيغفر - سبحانه وتعالى- لمن يشاء بفضله ورحمته، ويعذب من يشاء بعدله. وأبعدهم منزلاً الشقي المتكبر العاصي.

وقيل في أسباب نزول هذه الآية الكريمة: "قال ابن إسحاق أتى رسول الله صلى عليه وسلم نعمان بن اضا وبحريّ بن عمرو وشاس بن عديّ، فكلموه وكلمهم، ودعاهم إلى الله - عزّ وجلّ- وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل الله - عزّ وجلّ- فيهم هذه الآية الكريمة كما قال لهم: معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة ابن وهب: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله أنكم لتعلمون أنه رسول الله. ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حُرَيمله ووهب بن يهوذا: ما قلنا هذا لكم، ولا أنزل الله من كتاب بعد موسى، لا أرسل بشيراً ولا نذيراً من بعده».

وهذا وفي قولهم «نحن أبناء الله...» مخالفة لما نزلت به كتبهم من أنهم من أبناء آدم -عليه السلام- أبو البشرية عامة. ثم ومن أبناء نوح - عليه السلام- فهم ساميّون يعترفون بهذا الأصل.

إذن فما انتسابهم لله إلاّ افتراءٌ وزورٌ. وأما قولهم: «... واحباؤه... » فأسمى أنواع الحب هو طاعة المحبوب؛ فأين هي طاعتهم لله؛ وقد كانوا يقتلون أنبياء الله الذين يعتبرونهم سبب عزتهم. ويخالفون أوامر الله حتى مسخ بعضهم قردة وخنازير.

قال الله – سبحانه وتعالى – مؤكداً صحة رسالة محمد ﷺ وأنه يُبّشر من أطاع الله بالثواب الجزيل وينذر من عصى الله بالعذاب الأليم: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [المائدة: ١٩] وفي هذه الآية تحديد بين وتوضيح ظاهر بأن محمداً رسول من الله؛ فلا مجال للشك في رسالته، ولا عذر لمعتذر، ولا حجة لمحتج؛ فمحمد ﷺ هو خاتم النبيين الذي بشرت به الكتب.

فقد قال الله عنه بأنه «رسولنا» وهذا تأكيد وتكريم ما أعظم منه تأكيد وتكريم، وشهادة من الله وتأييد لرسالته ﷺ.

ومن مهام هذا الرسول الكريم ﷺ الذي جاء على فترة إنقطاع من الرُسل، وذلك بين بعثه ﷺ وبعث رسول الله عيسى ابن مريم - عليه السلام- قبله.

فمن مهامه ﷺ توصيل خبر السماء لجميع الخلق: من أهل الكتاب وغيرهم. فقد بُعث للناس كافة؛ فهو يبشر المتقين الطائعين، وينذر العصاة المجرمين المخالفين. ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ وتكون الثانية تأكيداً يبطنه التهديد والوعيد.

وتختم هذه الآية الكريمة بقدرة الله المطلقة فهو المستحق للطاعة والعبادة فقط القادر على إنجاز ما بشر به وأنذر منه، فالأمر جد، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق، والحساب حق.

=٧=

وجوب الإيمان بالكتب السماوية جميعها ويصدق بعضها بعضاً

يخاطب – سبحانه وتعالى- اليهود والنصارى بأنهم ضالون إذا لم يؤمنوا بكتب الله جميعها كما يخبر رسول الله محمداً أن أهل الكتاب سيناصبونه العداء، ويكذبونه ويجحدون نبوته: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٨].

القاسم المشترك بين الكتب السماوية، والأسس التي يقوم عليها الدين القويم: منها توحيد الله والإيمان باليوم الآخر والكتب والرسل. فمن يؤمن ببعض الكتب وبعض الرسل، ويكفر بغيرها، فقد سار في طريق الضلال والفساد والكفر، ولا ينفعه إيمانه الناقص ولا عمله مهما كان.

والخطاب لرسول الله محمد ﷺ يأمره ربه بتوضيح رسالته، وتبليغها، وأن يبين لأهل الكتاب أنهم ليسوا على شيء، في أمر الدين، ما لم يؤمنوا بالقرآن الكريم، كما يؤمنون بكتبهم، ويعملون بتعاليم القرآن مع إيمانهم بأن الله واحد لا شريك له في ملكه، وهو مرسل الكتب المنزلة جميعها؛ وهذه الكتب من منبع واحد، يُصدق بعضها بعضاً، والقرآن الكريم مهيمن عليها جميعها – بأمر الله-؛ فيجب اتباع تعاليمه كاملة؛ سواء وافقت ما بين أيديهم من كتب أو لم توافق؛ وذلك لعدم الثقة. بما حوته كتبهم بسبب التحريف والتزوير، وتحكيم الهوى، والحكام، الذي لحق بها بشهادة رب العالمين – سبحانه وتعالى- على ذلك.

ثم يخبر – سبحانه وتعالى- رسوله الكريم، بما سيلاقيه من عناد وعنت ومشقة ومقاومة وتشكيك في تبليغ رسالته من قبل هؤلاء الكتابيين الذين يتأمل فيهم الخير والصلاح، والسند والنجدة، ولين الجانب.

وسيصل بهم الأمر إلى درجة الطغيان والكفر المطلق والغلو فيه، ومحاربة دعوة الإسلام وأمة الإسلام، وبكل شدة وعنف. والله عالم الغيب، المطلع على السرائر والنفوس.

وما تحذيره – سبحانه وتعالى- لرسوله من شر لا بد حاصل إلاّ محافظة

وتكريم لدين الإسلام، ودفع للعدو عنه، فلا يغتر رسول الله ﷺ؛ فيحسن الظن بأهل الكتاب؛ ويعتبرهم في صفة ضد المشركين، من عبدة الأوثان؛ وذلك لأن كيدهم عظيم، ومكرهم شديد، وحسدهم عنيف؛ قد يفوق عداء المشركين والملاحدة.

وهذه الآية الكريمة تعتبر من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، وتنوير وتذكير لما سيحدث؛ وقد كان؛ فالحرب والكره بين أهل الكتاب والمسلمين وخلال بضع عشرة قرناً لم تهدأ، ولم تتوقف؛ بل لا يوجد عداء في الأرض أشد وأنكى من عداء أهل الكتاب، ولا حقد أعظم من حقدهم، والتاريخ يشهد، والحاضر أشد وأكبر.

ثم يختم – سبحانه وتعالى- هذه الآية الكريمة بالتحذير من الإحباط لرسوله الكريم؛ عند مقابلة خيانتهم وتآمرهم وتفضيلهم المشركين على المسلمين، بل ووقوفهم في صف عبدة الأوثان من المشركين، وتفضيلهم على المسلمين الموحدين.

فلا تطغى أمواج الحزن والأسى والإحباط على قلبه ﷺ فهذه هي طبيعتهم، وديدنهم عبر التاريخ، وهذه هي أخلاق الفساق والفجار والكفار، والكفر ملة واحدة، متشابهة السلوك، متحدة الإتجاه.

وحتى لا ينظر للأمر بطريقة شمولية؛ فيظن حرمان الموحدين من أهل الديانات السابقة للإسلام من رحمة الله وعفوه؛ فمن آمن منهم وعمل بما أمر الله في كتبه السابقة ودعوة رُسله فلا يُحرم الأجر.

والمحروم هو من اتخذ غير الإسلام ديناً، وذلك بعد نزول القرآن الكريم فلا يُقبل أي دين، أو التمسك بتعاليم سبقت الإسلام، إذا خالفته؛ لأنه المهيمن على ما سبقه.

قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

وحتى لا نظن الشر والفساد في جميع اليهود والنصارى والملحدين والمنافقين لدرجة القنوط من رحمة الله؛ بشر وبين – سبحانه وتعالى- مخبراً عمن تاب من هؤلاء جميعاً قديمهم وحديثهم وعمل صالحاً لومات على الإيمان بالله واليوم الآخر وبأركان الإيمان كلها، وعمل الصالحات بالجنة التي وعد بها المتقون.

كما بين لنا – سبحانه وتعالى- أن من مات من هؤلاء في العهود السابقة؛ وما داموا موحدين مؤمنين بكتب الله وبُرسله، عاملين بما أمر الله، منتهين عما نها عنه؛ سواء كان هذا الأمر في رسالات سبقت التوراة أو الإنجيل أو القران؛ فلن يحبط عملهم، ولن يخيب ظنهم في رحمة الله؛ ما داموا موحدين مؤمنين وكل هذا ينطبق على الأمم التي سبقت نزول القرآن الكريم وأما بعد نزوله فالأمر قد اختلف لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] فلا يقبل من أي من البشر توبة وديناً بغير الدخول في الإسلام لقوله – سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ...﴾ [آل عمران: ١٩] وليس هناك من تناقض بين كتب الله إلاّ ما أمر الله بنسخه لحكمة ومصلحة شرعية هو يعلمها. وقد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، وجعله مُهيمناً على الكتب السابقة له.

وقوله – سبحانه وتعالى- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ يعني المسلمين والصابئون: هم أقوام باقون على الفطرة، ولا دين مقرر لهم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٠].

هذه الآية الكريمة هي نوع من كشف الحقائق للرسول محمد ﷺ؛ وحتى لا ييأس ويغتم ويتأثر من موقف بعض أهل الكتاب الذين ظن أنهم سيكونون عونه وسنده، ضد عبدة الأوثان والمشركين؛ ولكنهم – وللأسف- ناصبوه العداء، وخانوا العهد، وحلوا المواثيق، في ساعة العسرة؛ حين تجمع الأحزاب، وضربهم الدولة الإسلامية الفتية عن قوس واحدة. فهل أشد وأعظم من هذه الخيانة؟ بل وحاولوا قتل رسول الله ﷺ– والغدر به؛ رغم أنه رسول من رب العالمين، وبشرت به وبكتابه وبأمته كتبهم، قبل أن يُبعث ﷺ.

وفي هذه الآية تذكير لرسول الله ﷺ بما فعل هؤلاء المجرمين الفجار بمن سبقه من الأنبياء والرسل؛ فقد قتلوا بعضهم، كما كذبوا الآخرين، رغم المعجزات والحجج الدامغة، والبراهين الواضحة، ورغم المجاهدة من هؤلاء الرسل والأنبياء بكل الوسائل المشروعة لمساعدتهم على الثبات والإستقامة على

دين التوحيد.

فقد حكّموا الهوى، والنفس الأمارة بالسوء، وتنكروا لرسل الله، بل واستعملوا أسوأ الطرق وأخبث المسالك، لايذائهم وهل أعظم من قتل البعض، وتكذيب الآخرين من هؤلاء الأنبياء؟ فكذبوا عيسى ابن مريم – عليه السلام- وحاولوا قتله لولا رحمة الله به. وقتلوا زكريا ويحيى – عليهما السلام-

وأما الميثاق الذي أُخذ عليهم؛ وتجرأوا على الله ونقضوه: فهو ألاّ يعبدوا إلاّ الله، والإيمان برسله ومساندتهم في نشر دين الله، والإخلاص والسمع والطاعة لله ولرسله ولكتبه، ومن رُسله محمد ﷺ. الذي بشرت به كتبهم.

ظن بنوا اسرائيل بأن الله تاركهم بدون ابتلاء، ما دروا أن هذا استدراج لهم، والله يمهل ولا يُهمل قال – سبحانه وتعالى-: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧١].

هذه الآية بيان ووصف لبني اسرائيل وقد اغتروا بتقدير الله لهم بإرسال الرسل والكتب، وما دروا أن ذلك فتنة واستدراج لهم.

وأن الله بصير بأعمالهم، مطلع على أقوالهم ونياتهم، فعميت بصيرتهم عن الهدى ودين الحق، والطريق المستقيم؛ طريق الصالحين المتقين، فهم لم ينتفعوا بما رأوه ولا بما سمعوه من العظات؛ لا في القديم ولا في عهد رسول الله محمد ﷺ؛ فقد صُمت أذانهم عن سماع الحق، وعن عظات أنبيائهم، وما حوته كتبهم من أوامر ونواه.

وقد تكرر منهم العصيان والتحجُر والفسوق والفساد، وجربوا التوبة كما جربوا الردة. وعلموا من رسول الله محمد ﷺ أن الله يقبل التوبة من عباده غير المصرّين على ارتكاب المعاصي والآثام.

وأما من صُمت أذانهم عن وعظ الواعظ، وعميت بصائرهم عن آيات الله البينات، وآثروا الكفر على الإيمان، والردة على التوبة؛ فهلكوا رغم ظهور الحق لهم من رسالة الإسلام، ومعجزات القرآن الكريم.

وبصيغة القسم؛ يكفر رب العالمين – سبحانه وتعالى- من اتخذ عيسى رباً من دون الله من النصارى حيث قال – سبحانه وتعالى-: ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

والذين ألهوه هم جماعة «اليعقوبية» من النصارى ويخبرنا رب العزة – سبحانه وتعالى- وهو المطلع على فرق الشرك والضلال، بما قاله رسوله عيسى ابن مريم – عليه السلام- لبني اسرائيل:يأمرهم بعبادة الله وحده. فلو كان – عليه السلام- كما يدعي النصارى-إلهاً؛ لأمرهم بذلك صراحة، كما أمرهم رب العالمين الحقيقي صراحة بعبادته وحده، وانه لن يلد ولم يولد.

كما ويخبرنا – سبحانه وتعالى- عما قاله رسول الله عيسى –عليه السلام– لبني اسرائيل أن الله هو ربه وربهم وهذا دليل وحجة واضحة بينة على أن عيسى – عليه السلام- ليس بإله، وأنه موحد. فكيف يطلب بمنزلة الإله وهو عبد الله ورسوله؟ وكل هذا يُظهر أن فكرة تأليهِهِ، كانت متاخرة، بعد اجيال من رفعه للسماء.

ثم يخبر – عليه السلام- بني إسرائيل عن جرم الشرك بالله، وأنه أعظم إثم يرتكبه البشر، وأن من يشرك بالله: قد حرم نفسه الرحمة ونصيبه من الجنة، والنار هي مثوى المشركين.

ثم يبين لهم – عليه السلام- النصر هو من توفيق الله وهديه. والظالمون المشركون قد حرموا أنفسهم هذا النصر، ولا ناصر لهم من دون الله، وذلك بسبب ظلمهم، وتوجيه الشرك لغير المُنعم، وتقديس العبد دون الرب، والمخلوق دون الخالق.

وفي هذه الآية الكريمة من التقريع والتهديد والوعيد؛ لمن أوصلهم الغلوّ، وسطحية التفكير إلى الشرك.

فهو – سبحانه وتعالى- يؤكد كفر هؤلاء الذين ألهوا رسول الله عيسى حتى أوصلهم الغلوّ إلى الشرك فالنار. كما أوصلهم إلى تفرق الرأيّ فيه، فكل منهم يكفر الآخر، وكل يدعي الرأي الصواب معه. وكل هذا يدل على عدم قناعة فرقهم وعدم وجود دليل واضح وبرهان مقنع، يعتد به، فيقنع العقل، وتطمئن له النفس؛ فيتوقف الجدال، وتركن النفوس لرأيّ صائب ثابت بيّن.

الرد على من ادعى أن الله ثالث ثلاثة، والوعيد لمن استمر منهم في طريق

الشرك والكفر قال – سبحانه وتعالى:﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المائدة: ٧٣].

وكان رده – سبحانه وتعالى- عنيفاً شديداً، على تلك الفئة الضالة التي ادعت أن الله ثالث ثلاثة هم جماهير النصارى في زمننا هذا جماعة «الأب، والابن، وروح القدس» وما لهم به من علم، وليس معهم فيه سلطان بين وإنما وسوس لهم الشيطان فاتبعوه؛ فضلوا وهلكوا. وهل يُقدم الشيطان للبشر غير الشر والضلال، منذ آدم – عليه السلام- إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والثلاثة –عند النصارى- هم «اب وابن وروح القدس". ورغم كل محاولات التورية والتضليل والإلتفاف على هذه الفكرة الفاسدة، والرأي التائه، والعقيدة المضطربة، بطرق شتى؛ لا يسكن إليها عقل عاقل، ولا يتقبلها فكر مستنير.

وقولهم: أن الثلاثة كأنهم واحد، في خلق وإدارة الكون؛ يعارضه أي عقل سليم. لم يستسغ العقل هذا التصور المتناقض حتى لمن قالوه، وابتدعوه. ومن هنا ظهرت فرق المعارضة لهذا الرأيّ الفاسد، والتصور المضطرب لكل منهم معتقده وتفسيره، وتعددت تلك الفرق، وبعُدت المسافات بينها، فصعُب جمعها أو التفاهم بينها.

هذا اختلاف في أسس الدين، والمبادئ العامة فيه. فكيف بالفروع؟؟؟

ولعدم قناعة البشر؛ حتى العامة فيهم، وكثرة الاسئلة التوضيحية، وتناقض الأجوبة أُعتبر البحث في هذه العقيدة الضالة: هي من أسرار الكنائس، والرهبان ورجال الدين، الذين انفصلوا عن الناس، انفصالاً ظاهراً بيناً وكأنهم هم المحاسبون يوم القيامة عن أفعالهم، وأما عامة الناس فيكفيهم «صك» أو شطيرة من يد راهب أو دعوة من فم قسيس.

وابتدعوا فكرة الإيمان الوجداني، وعدم الخوض في أسرار هذا الدين، ومن هنا ألغوا العقل كأساس في الإعتقاد.

كل هذا لعدم استساغة العقول لمثل هذا القول وذلك التفسير؛ فوحدة الكون والمخلوقات تؤكد وحدانية الصانع الخالق المدير للكون، الواحد الأحد.

قال الله – سبحانه وتعالى- رداً على المشركين: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

لَفَسَدَتَاۚ ...﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ثم أين كان هذا الإبن الإله قبل مولده؟ ألا تتناقض كلمة ابن مع صفة الأول في الربوبية. وهل يستسيغ عقل عاقل وجوده قبل أن يوجد؟ وأين هو من أهل الأرض بعد أن رفعه ربه إلى السماء؟ وأمه تلك التي أُلهت أيضاً مثله عندهم أين كانت منذ الجد الأول آدم – عليه السلام – حتى أصبحت بنتاً لبني اسرائيل؟ وهل أصولها من الأجداد أيضاً ألهة؟ وأين كانت وأبناء اسرائيل يعقوب – عليه السلام- يلقون بيوسف عليه السلام في الجب؟ وفي ظهر من منهم كانت؟ وكيف لم تشفع له عندهم؟ أو تبلغ إياهم بما عملوا؟!!

وفي ظهر مَن من بني إسرائيل كانت كامنة وهم يعبدون العجل من دون الله؟ أو وهم يسألون موسى - عليه السلام- أن يجعل لهم آلهة كما رأوا لعبدة الأصنام آلهة؟

وكيف تحملت اسواط السنة بني اسرائيل وهم يتهمونها في أعظم ما تتهم بهِ أنثى؟ ثم أين كانت واليهود تطارد الرب «الإبن» وهو يختبئ منهم في الكهوف وبين الأشجار؟ يا له من إله!! ويا لقوة وجبروت

يهود !! ويا لعقول تستسيغ هذا الدين!! تؤمن أن بشراً مخلوقاً محتاجاً هو إله أو ابن إله أو شريك لله في ملكه.

ما أعدل حكم الله في هذه الفئة الضالة المضلة الكافرة حيث يقول فيهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ما دامت هذه الفرقة من النصارى مُصرة على السير في ضلالها، تتبع خُطى الشيطان الرجيم، الذي سول لهم هذا الرأيّ، وزينه لهم، وهداهم لتلك الفكرة المضلة، وذلك التصور الفاسد فاتبعوه؛ مضبوعين بما أملاه عليهم، بدون تمحيص ولا تفكير، ولم يكفوا عن إفترائهم وكفرهم، فلهم عذاب أليم.

والإستفهام في أول هذه الآية الكريمة هو للتوبيخ؛ والتحذير، لعلهم يرجعون عن غيهم، فيتوبون ويستغفرون ويلجأون لرب رحيم غفور.

قال تعالى: مستأنفاً حديثه ومخاطباً بكل تعجب هؤلاء الضالين الكافرين المشركين من النصارى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

فقد فتح لهم القرآن ذلك الكتاب الكريم، الذي أرسله رب العالمين لمحمد ﷺ خاتم النبيين، وهادي الضالين، ومفرج كرب المترددين الحائرين أقول قد فتح لهم كُوى النور، لو كانوا يبصرون، والبراهين الواضحة لو كانوا يفكرون.

فليرجعوا لهذا الكتاب الكريم ليجدوا فيه الشفاء لما هم فيه من ضيق وتخبط وضلال؛ فباب التوبة والفرج مفتوح، لو كانوا يعقلون؛ وأنى لهم العقل؛ وقد خالفوا طبيعة البشر والحياة بجعل الواحد ثلاثة.

=٨=

المسيح عيسى ابن مريم رسول ومن طبيعة الرسل التسلح بالمعجزات

قال الله سبحانه وتعالى مزيلاً لبعض شبهات مَن أَلَّه عيسى عليه السلام:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

ثم يأتي التوضيح البين، والدليل الساطع، والحجة القاطعة؛ وذلك لإزالة الشبهة التي دعت هذه الفرق لتأليهه – عليه السلام - وهي معجزاته الخارقة.

فيذكرنا ربنا الهادي سواء السبيل، لينير أفكارنا؛ وليزيل غشاوة الشك عن بصائرنا. حيث يذكر أن المسيح ابن مريم - عليه السلام- رسول، ومن طبيعة الرسل التسلح بالمعجزات والخوارق؛ ليصدقهم الناس: فعصا موسى – عليه السلام- من الجماد، وكانت تدب فيها الحياة، فتتحول إلى حية تسعى – بإذن الله- ثم ترجع إلى طبيعتها -بإذن الله- ومع هذه لم يُؤله موسى – عليه السلام - ومثلها سائر المعجزات عبر التاريخ.

فالصخرة الجامدة، قد خرجت منها ناقة: تأكل وتشرب وتحلب، وبدون أم ولا أب خرجت أمام صالح – عليه السلام - وأمام قومه. أليست هذه معجزة؟ مع هذا لم يُؤله صالح – عليه السلام- ولا ناقته الحلوب التي خلقها الله – سبحانه وتعالى- من صخرة، وتسقي القوم حليباً، وتشرب الماء من بئرهم، وبدون أب ولا أم ولا فحل.

وهذه سفينة نوح – عليه السلام- فقد جاءها الماء – بأمر الله- ولم تأت إليه؛ وسارت بين موج ثائر كالجبال وقد كان قومه قد سخروا منه وهو يصنع سفينته تلك في مكان يبس لا ماء فيه ولا بحر هذه هي طبيعة المعجزات.

فبأذن الله تحدث المعجزات، وتتغير طبائع الأشياء بإذنه – سبحانه وتعالى- فالنار تسحب منها خاصية الحرق والسكين تسحب منها خاصية القطع، والبحر ينشق لموسى – عليه السلام- وجيشه، ويطبق على فرعون وجيشه وهكذا... وما أمره – سبحانه وتعالى إلا: أن يقول للشيء: كن فيكون.

ثم إن عيسى ابن مريم – عليه السلام- هو ابن امرأة من البشر من نسل آدم- – عليه السلام. صدّقت بكل معجزات ابنها، ولهذا سميت صدّيقة فأحصنت فرجها، فأكرمها الله، واصطفاها؛ لتكون أماً لنبيّ رسول كريم.

وكانت من القانتين العابدين الموحدين المطيعين لأمر الله. ولم تذكر يوماً أن ابنها إله، ولم يُنقل عنها ذلك.

فلو كان – عليه السلام- إلهاً لكانت هي أول القائلين بذلك؛ لأهمية هذا الأمر كما لم يُنقل عنها أن ادعت الألوهية.

فالويل كل الويل لمن استزلهم الشيطان؛ فأوهمهم وأضلهم، فانحرفوا عن طريق الهدى والنور، طريق الصالحين المؤمنين، الذين يؤمنون بالغيب.

ثم يذكر – سبحانه وتعالى- بأنها وابنها، كانا يأكلان الطعام؛ ومن يأكل الطعام يغوط، وهذه جميعها من صفات البشر، وليس من صفات الإله.

فعيسى وأمه: كانا يحتاجان الطعام واللباس والنوم، ثم كانا محدودين في القوة والطول والقصر. وكلها من صفات البشر. كما كانا محدودين في المعرفة والعلم والقدرة.

ورغم هذا التوضيح البين، والأدلة الساطعة، والحجج الدامغة، فقد استمر هؤلاء المشركون من أهل الكتاب في غيهم وضلالهم، ولم يستجيبوا لنداء رسول الله محمد ﷺ وهو يدعوهم لما فيه خيرهم وصلاحهم؛ ولا يزالون متنكرين لكل حجة، معرضين عن كل نُصح، أضلهم الشيطان فاستجابوا له.

وتنكروا لكتاب الله، القرآن الكريم؛ الذي ثبتت صحته، واستمرت ثقة البشرية فيه عبر القرون الطويلة، فوقف ثابتاً أمام تقدم العلم، وعمق التفكير، واستنارته. فلم يثبت أن تعارض العلم الصحيح الذي يوثق به ولو مع آية واحدة منه.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ...﴾ [فُصِّلَت: ٥٣].

فلا علم الفلك، ولا علم الطب، بل ولا علم الإجتماع أثبت خلاف آيات الله.

وبأسلوب الإستغراب والتعجب، يخاطب رب العزة محمد ﷺ قائلاً في هؤلاء الكفار من النصارى ﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ...﴾ [المائدة: ٧٥].

فقد بين – سبحانه وتعالى- بكل الطرق لهؤلاء الجهلة من الطرق حاجة عيسى وأمه للطعام والشراب، ومَن يأكل ويشرب لا بد من الإخراج؛ وكلها من صفات البشر ﴿...ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ...﴾ [المائدة: ٧٥].

وأيضا بصيغة التعجب من موقفهم وإنصرافهم عن الحق، وقد وضح وبان فقد اتخذوا المكابرة مبدأً ومنهجاً، وساروا طريق الغواية والضلال.

ويستمر الخطاب والتوضيح والتعليم للرسول الكريم محمد ﷺ فيقول - سبحانه وتعالى- له: ﴿ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦].

يأمر الله – سبحانه وتعالى- رسوله؛ ليبلغ هذه الفرق الضالة التي تتخبط في دياجير الجهل والحيرة والشك، وتسير مضبوعة وراء شيطان مارد؛ أقسم أن يضل أبناء آدم، فوجد في هذه الفرق ضالته المنشودة فبين لهم النصح واللين؛ وسيتخلى عنهم يوم القيامة يوم الحسرة والندامة، يوم جزاء ولا عمل.

وإلاّ كيف يستسيغ عقل عاقل أن بشراً عاش في بطن أم من البشر ثم وضعته، وهي تقول:﴿... يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ [مريم: ٢٣].

وحملته، ضعيفاً صغيراً، وأرضعته، وغذته حتى كبر وأُرسل إليه، وهو في حاجة لهذه الأم، وهل يمكن أن يكون الإله محتاجاً لهذا؟ ثم طاردته الفئة الباغية من بني إسرائيل، واختبأ منهم في كهوف ووديان بلاد الشام المباركة، وهم يتعقبونه ويطلب – عليه السلام - النُصرة فينصره الحواريون وهم أيضاً من البشر، من أبناء آدم. وهل للخالق أن يستنجد بالمخلوق؟ وهل للرب أن يطلب النصرة من العبد؟ وهل...؟ وهل..

ويطلب الحواريون من رسول الله عيسى – عليه السلام - أن يطلب من الله:مائدة من السماء، لتطمئن نفوسهم، ولتكون عيداً لهم فيطلب – عليه السلام - من ربه، فتتنزل تلك المائدة – باذن الله- ويؤمن من آمن. ويكفر من كفر من بني اسرائيل؛ فيهتدي به البعض ويقاوم دعوته آخرون ولا حول ولا قوة إلاّ بإرادة الله، الرب الحقيقي الذي يقول للشيء كن فيكون.

فلو كان عيسى رباً لدفع الأعداء عن نفسه، ولما احتاج نصرة الحواريين. ولو كان رباً لما احتاج أُماً تحمله وهي في حالة ضعف المخاض.

فأين العقول المستنيرة فتعقل؟ وأين البصائر لترى الحقائق فتتبعها؟ وأين من يستمع العظة فيتعظ؟؟؟

وقد قدّم – سبحانه وتعالى- الضر على النفع لأن دفع المفاسد أهم من جلب المصالح في الشرع والعبد المخلوق أنى له القدرة على دفع الضرر عن نفسه أو غيره إلاّ بإرادة الله وعونه.

ما دام السميع العليم هو الله فهو المحيط بكل شيء فبيده الضر والنفع لا بيد المخلوق الضعيف. فمن أراد أن يستعين فليستعن بالله، الواحد الأحد.

ومن فضل الله على أمة الإسلام تحذير رب العالمين لهم من الغلوّ ولو أن المخاطب في هذه الآية هم أهل الكتاب حيث قال – سبحانه وتعالى-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

يأمر رب العزة – سبحانه وتعالى- رسوله الكريم محمداً ﷺ أن ينهى أهل الكتاب عن الغلوّ في الدين إلاّ لإظهار الحق واتباعه.

كما يذكرهم لعدم التقليد بدون استعمال العقل، فالتقليد في العقائد خطره شديد، فحب الآباء والأجداد يجب ألا يوصلنا أنهم على حق، وأنهم قد ساروا طريق الفلاح فنتبع خطاهم على غير بصيرة.

وتستمر العظات والتحذيرات من رب العالمين: تدعو للتبصر، وعدم التقليد الأعمى. والسير على قاعدة: لا إفراط ولا تفريط. ولأهل الكتاب بالتبكيت والفضح والوعظ، لمن يتعظ منهم، فيرجع عن غيه، ويتبع الحق؛ فيسير طريق الصالحين المتقين المهتدين.

هذه والغلوّ في البحث عن الحقيقة والتفاني في ذلك، والجهاد بالنفس والجسم كله جائز، ولا يدخل في النهي المذكور في هذه الآية الكريمة.

يأمرنا الله – سبحانه وتعالى- ألاّ نُفرّط ونتجاوز الحد في رسول الله عيسى ابن مريم – عليه السلام- فنقول فيه ما لم يكن فيه: فنقول أنه ابن زنا، كقول اليهود فيه، أو نؤلهه كقول النصارى فيه؛ وكلا القولين مجاف للصواب، وتغطية لحقيقته بل كفر وفسوق.

لأنه بشر، رسول من الله، خُلق بدون أب وخلقه بدون أب ليس بدعة ولا غريباً في عالم المعجزات؛ بل قد سبقه أبو البشر آدم – عليه السلام- خُلق بدون أب

ولا أم. ومع هذا فاجماع أهل الأرض أنه بشر وليس إلهاً.

والخطاب موجه في هذه الآية الكريمة لرسول الله محمد ﷺ لتبليغ أهل الكتاب الذين عاصروه، ومن جاء بعدهم وسمعوا عن نزول القرآن الكريم.

وقد آمن منهم خلق كثير، ولا يزال يؤمن منهم الكثير الكثير، عندما تنجلي لهم الحقيقة، وتستنير عقولهم وقد خصهم – سبحانه وتعالى- في هذه الآية المباركة لتنويرهم ووعظهم وإنذارهم، وتبكيتاً لمن يعلم منهم الحقيقة ولا يتبعها كيداً ومكراً وحسداً.

ويذكرنا – سبحانه وتعالى – وينذر أهل الكتاب فيتعظوا بمن سلف من اليهود والنصارى قبل بعثة رسول الله محمد ﷺ، وأثناء وجوده الذين تمكن منهم الشيطان؛ فأغواهم وأضلهم عن سواء السبيل؛ فانحرفوا عن طريق الدين الحق، وساروا طريق الضلال والتيه.

ومن تبع أثرهم، تقليداً أعمى؛ وامتهن الفساد في أرض الله مُقاوم الموحدين من البشر العاملين على نشر دين الله في هذه الأرض التي استخلفنا الله فيها، وأكرمنا بتسخير خيراتها لنا، وأمرنا أن نكون من الطائعين لأمره الشاكرين.

وقد تكررت كلمة «ضلوا" في هذه الآية الكريمة؛ تنبيهاً وتحذيراً لأهل الكتاب من تقليد أسلافهم الذين سنّوا الضلالة والغلوّ والفسوق.

وقد ذكرت كلمة «ضلوا من قبل" هم السلف ابتعدوا عن شرع الله «وأضلوا كثيراً» لأنهم قلدوهم وساروا طريقهم فهلكوا مثلهم «وضلوا عن سواء السبيل" أي انحرفوا عن الخط المستقيم الذي شرعه رب العالمين للبشر أن أطاعوه؛ ولكنهم حكموا الهوى فدخلوا النار.

ولا شك أن ما ظنه النصارى واشتبه عليهم في رسول الله عيسى – عليه السلام - هو من عمل الشيطان. والاّ كيف بمن يُؤمن بقدرة الله على الخلق، والإيجاد حيث يقول للشيء كن فيكون.

بشك في عيسى – عليه السلام- الذي خلقه الله بدون أب والله يقول:﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[القمر: ٥٠].

فوسوس لهم الشيطان: أنه ما دام بدون أب فهو ابن الله. ورغم أن هذا الإدعاء يتعارض مع قدرة الله المطلقة، وأنه فعّال لما يريد. أقول وُجد من البشر، أن يوصله الغلوّ إلى الكفر فيجعل لله شريكاً؛ رغم أن الشرك أعظم الذنوب.

=٩=

عصيان أوامر الله ومجاوزة الحدود يُوجب اللعن

قال الله - سبحانه وتعالى- عن بعض موجبات اللعن:﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[المائدة: ٧٨ - ٧٩].

لعنهم في الدنيا مسخهم قردة وخنازير وهذه نوع من التشهير ببني إسرائيل، وفضحهم لكثرة تمردهم على أنبيائهم وعصيانهم، ومداهنتهم أهل المعاصي، وسكوتهم عن قول الحق.

قال ابن عباس: «الذين لعنوا على لسان داود أصحاب السبت، والذين لعنوا على لسان عيسى الذين كفروا بالمائدة بعد نزولها» واللعن: هو الطرد من رحمة الله؛ وقد طردوا بسبب عصيانهم واعتدائهم على الأنبياء وفسادهم في الأرض. وقد وعدوا بتصديق الرسل فاخلفوا.

ولسان داود – عليه السلام - هو الزبور، كما أن لسان عيسى –عليه السلام– هو الإنجيل وقد أبرزت وأظهرت هذه الآيات صفة من صفات بني إسرائيل؛ وقد استحقوا اللعن بسببها، وهي ركن، وأساس من أسس المجتمع الصالح القوي، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فقد استحق اليهود والنصارى، ومن هو على شاكلتهم اللعن؛ لتركهم أهل الفساد والعناد والحقد، وأصحاب الأهواء يهدمون المجتمع ويفسدونه؛ وهم ينظرون، ولا ينهون، ولا ينكرون.

قال رسول الله ﷺ في هذا: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل أول ما يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض"

ثم قال: «لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن

مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» إلى قوله: «فاسقون» ثم قال: «كلا والله لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتاخُذنّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعنكم كما لعنهم» أبو داود والترمذي.

وتوضح هذه الآية الكريمة والحديث الشريف أسباب اللعن: وذلك هو التساهل في إنكار المنكر، وأن فعلهم هذا بعدم إنكارهم المنكر أمر شائن ومغضب للرب، عقوبته اللعن.

قال الله – سبحانه وتعالى- فيمن يقف في صف الكفار ويتخذهم أولياء وهم يحاربون المؤمنين الصادقين المخلصين:﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨٠ - ٨١].

والخطاب موجه للرسول محمد ﷺ حسب السياق قيل المراد في هذه الآية الكريمة هم المنافقون يتولون من لعنهم الله من الكفار. وقد سخط الله عليهم وذلك بخلودهم يوم القيامة في النار، وسبب هذا التهديد والوعيد والتوبيخ ما هو إلاّ بما سولت وزينت لهم أنفسهم من ولاء للكفار، والسير في طريق النفاق، وما يعتري ويغلّف هذه الطريق من تلون وجبن، وخيانة ونقض للعهود.

ثم يثبت – سبحانه وتعالى- بالحجة القاطعة كفرهم رغم إظهارهم الطاعة للمسلمين، وذلك باتخاذ الكفار أولياء يسرون لهم بالمودة، ويكشفون لهم عن عورات المسلمين.

ومن يؤمن بالله رباً وبمحمد رسولاً أرسله الله بالقرآن الكريم المنقذ للبشرية من الضلال؛ لا يوالي الكفار أعداء الله ورسوله والمؤمنين.

ثم تختم هذه الآية الكريمة بإخبار المطلع على السر وأخفى، رب العالمين، جل جلاله- بفسوقهم؛ لنفاقهم هذا، وما يلفه من مداهنة وعصيان وكذب، وخيانة لله ولرسوله وللمؤمنين.

وأما إذا اتبعنا السياق –في تفسير الآيات هذه؛ والمراد هم اليهود والذين كفروا هم مشركو العرب حيث كانت لهم دولة وسيطرة قبل انتصارات المسلمين وفتح مكة المكرمة عاصمة العرب الدينية في تلك الأيام. وقد حالفهم

يهود المدينة ضد المسلمين ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون حقاً بالله مرسل الكتب وباعث الرُسل ومنهم محمد ﷺ بما اتخذوا عبدة الأصنام أولياء رغم أن كتبهم قد بشرت برسول ورسالة خاتم النبيين محمد ﷺ.

التحذير من الكفار عامة، ومن اليهود والمشركين خاصة لشدة عداوتهم للمسلمين وتكبرهم وحقدهم. ويبشرنا بدخول الكثير من النصارى في هذا الدين. وقد كان إلى اليوم. وخص بعض النصارى بالمدح لوقوفهم المشرف من دعاة الإسلام الذين لجئوا إلى الحبشة، ثم لدخول بعض هؤلاء النصارى وخاصة ملكهم في دين الإسلام قال – سبحانه وتعالى-: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣].

تؤكد هذه الآية عداوة اليهود والمشركين الدائمة المستمرة. وهذا العداء مميز عن غيره، لا تغيره الأزمان، ومرور القرون، ولا اختلاف الأحوال والأعصار، إلى أن يقول الحجر والشجر يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي ورائي، تعالَ فاقتله، وذلك من أشراط الساعة وهذا التحذير لما سيحدث هو من إعجاز القرآن الكريم، وهو تكريم لأمة محمد ﷺ.

كما امتدحت هذه الآية الكريمة موقف بعض النصارى، وذلك لتواضعهم، واستنارة قلوبهم، وحبهم الخير، ونُصرة الدين، ودعاته.

وقد حددت بعض الآثار أن نصارى من الحبشة، هم المعنيون بهذه الآية، وعلى رأسهم النجاشي ملك الحبشة وبعض رجال الحكم عنده من القسيسين والرهبان والأسرة المالكة ممن أسلم منهم، في عهد رسول الله محمد ﷺ.

فقد ذُكر في سيرة ابن اسحاق ما نصه:قدم المسلمون في الهجرة الأولى خوفاً من المشركين وفتنتهم على ملك الحبشة، وكانوا ذوي عدد ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد ذلك فلم يقدروا على الوصول إليه، حالت بينهم وبين رسول الله ﷺ الحرب. فلما كانت وقعة بدر وقتل الله فيها صناديد الكفار، قال كفار قريش: إن ثأركم بأرض الحبشة، فاهدوا إلى النجاشي، وابعثوا إليه رجلين من ذوي رأيكم لعله يُعطيكم من عنده فتقتلونهم بمن قُتل منكم ببدر،

فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا، فسمع النبي ﷺ بذلك، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أميّة الضمري وكتب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة «مريم» تفيض أعينهم من الدمع، فهم الذين أنزل الله فيهم «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى...» وقرأ إلى «الشاهدين» رواه أبو داود.

ثارت عواطفهم، وهاجت نفوسهم، فانهمر الدمع، شوقاً لجنة وعد الله المتقين بها، ورؤية رسول طالما انتظره الموحدون المؤمنون، بشرت به الكتب السماوية.

تأكد هؤلاء أن محمداً هو الرسول المنتظر الذي وردت صفاته، وذكره في كتاب الله «الإنجيل» فقد جاء وبُعث له، وها هو يجاهد الكفار لتبليغ رسالة ربه شاهراً سيفه، لنشر، وحماية دين الله.

وهذا هو الحق الذي عرفوه، وذكرته الآية الكريمة فاستنارت عقولهم، وسكنت نفوسهم؛ فدعوا الله أن يكونوا مسلمين من أمة الشهادة، الأمة التي ستشهد بالحق، تلك التي صدقت الأنبياء جميعهم والكتب جميعها بدون تمييز ولا تعصب.

قال الله – سبحانه وتعالى-:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة: ١٤٣].

وهذه الفئة التي آمنت بالقران الكريم وبرسالة الإسلام، كانت قريبة العهد بتعاليم «الإنجيل» الصحيحة، ولوجود كثير من القساوسة والرهبان الذين لجئوا لبلاد الحبشة خوفاً من أن يفتنهم الحكام، وعلماء السلاطين الذين لا يحكمّون شرع الله بل هوى النفس، ورغبة رجال الحكم، والمصلحة الخاصة فيحرّمُون الكتب لتساير رغبة أولي الأمر؛ ثم ينتقمون من كل منتقد لهم، أو معترض على رأيهم.

أقول: وجد هؤلاء المؤمنون الصفات والإرهاصات التي وردت في الكتب السماوية الصحيحة. وجدوها تنطبق على رسول الله محمد ﷺ وعلى صحابته الأفاضل، وأمته الماجدة.

هذا المثال على بعض المؤمنين من النصارى، ودخولهم في الدين الإسلامي، ودولته تحبو، ورجاله قلة يشجع غيرهم من النصارى بالدخول في

هذا الدين القويم، فهم يحذون حذوا نصارى الحبشة.

وقد مدحهم رب العالمين، وبين قوة إيمانهم؛ حيث تفيض أعينهم من الدمع، وتتشوق نفوسهم، لذكر الله ورسوله، وصحابة رسول الله الأفاضل –رضي الله عنهم- الذين كانوا في تلك الأيام يخوضون أشرس المعارك بأقل عدد وعدة، وما النصر إلا من عند الله، وقد نصرهم.

لم يفرقوا بين رسل الله، ذلك لأن رسل الله – عليهم السلام- أولاد علات لا فرق بينهم. وقالوا سمعنا وأطعنا ينادون بالتوحيد، وهم جميعاً يسيرون على الطريق المستقيم الذي بينه الله – سبحانه وتعالى- وحدده.

وقد دخل ملايين النصارى في الإسلام في بلاد الشام ومصر وحوض البحر الأبيض المتوسط. ولا يزال يدخل منهم في هذا الدين؛ وذلك عندما تستنير عقولهم، وتطهر قلوبهم من الرين، ويخلعون رداء الكيد والحسد والتعصب والكبر.

ويمتدح الله – سبحانه وتعالى- حبهم لله وللسير حسب أمره – سبحانه وتعالى- وطمعهم بالدخول مع المؤمنين الصالحين.

قال – سبحانه وتعالى- على لسانهم: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المائدة: ٨٤] وفي هذه الآية الكريمة يظهر مقدار تعلقهم بالإسلام وبأمة الإسلام وحب الله ورسوله، وتوحيد الله والثبات والإخلاص، والتفاني في عمل الخير، والتمسك بالعروة الوثقى، وأخوة الإسلام، وأسس الدين الحنيف، وشرع الله.

فقد وضح السبيل لهم: فما لهم لا يؤمنون؟ وقد أنار الإسلام بلاد العرب، وغزا مشارف بلاد العجم، وغداً ينير المعمورة، وهو دين للبشر عامة، وليس لقوم خاصين، لا فرق بين العرب والعجم في مسؤولية حمله، والعمل به ونشره.

كما أثلج صدورهم، وأسكن نفوسهم، انتماؤهم لأمة الإسلام الماجدة؛ أمة الصلاح والفلاح والخير، الأمة الوسط؛ فطمعوا أن يحشروا معها، مع أشرف الخلق، مع القوم الصالحين.

قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٥ - ٨٦] فكان أن حقق – سبحانه وتعالى- ما طمعوا فيه، وطمحوا إليه، وتمنوه فكان جزاء إيمانهم، وسيرهم في الطريق المستقيم، طريق الحق والفلاح الموصل لأبواب الجنان، خالدين في هذا النعيم المقيم، بجوار رب كريم رحيم، كل هذا جزاء المحسنين المتقين، المطيعين لأمر الله.

وأما المكذبون المنحرفون الضالون الذين ساروا طريق الشر، واتبعوا الشيطان فأوردهم النار وساءت مستقراً ومقاماً، جزاء عصيانهم وتكبرهم.

=١٠=

تذكير عيسى ابن مريم بنعم الله عليه وعلى والدته

قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] احذروا يا أبناء آدم من يوم يجمع الله - سبحانه وتعالى- فيه رسله - عليهم السلام – فيسألهم بماذا أُجبتم؟ والرُسل هؤلاء هم النور الذي أنار الأرض، وهم الصلة بين الأرض والسماء فهم الذين نقلوا أوامر الله ونواهيه، ليعمروا بها الأرض؛ فيحاربوا الفساد، وتحكيم الهوى والشيطان وحزبه

وهذه الأوامر هي حجة الله – سبحانه وتعالى- على خلقه فمن أطاع واتقى فله الحسنى، ومن عصى وكفر فقد تعس وهلك. فيكون جوابهم لله المطلع على السرائر، العالم بما تخفى قلوب الخلق الوارث للأرض وما عليها،الباعث الخلق للحساب والجزاء.

يجيب الرسل – عليهم السلام – بكل احترام وخشوع وأدب: ﴿...لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ومن هؤلاء الرسل عيسى ابن مريم – عليه السلام - ذلك الرسول الذي اتخذه النصارى إلهاً عُلواً وعناداً ومباهة فجمعه مع الرسل، وإجابته كجوابهم هو نوع من التوبيخ لمن اتخذه إلهاً.

فلو كان كما يدعون، لكان يعلم الغيب، فيجيب ربه غير هذا الجواب، ولتميز موقفه عن غيره من الرسل ولكن أنّى للعقول المتحجرة التي شربت كاسات الضلال مترعة من يد الشيطان الرجيم؛ أن تعي وتعقل؛ فتعلن طلاق تحكيم الهوى، فتخر تائبة ساجدة لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وتحتكم للعقل الواعي المستنير، تاركة التعصب الأعمى الذي قادهم لصحراء الضلال والتيه؛ فخسروا الدنيا والآخرة. وعميت بصائرهم عن رؤية الحق الأبلج؛ فهووا في ظلمات الجهل ومستنقع الضلال.

ونفهم من سؤاله – سبحانه وتعالى –لأنبيائه عليهم السلام وهو علاّم الغيوب انه سألهم ليخبرهم عن ردة أممهم وكفر ونفاق وكذب بعضهم، بعد

ذهاب أنبيائهم. ثم التشهير بهؤلاء المرتدين كنوع من العقوبة بهم هذا وتخص النصارى حيث اتخذوا عيسى إلهاً، فما أغنى عنهم بل كذّبهم وهزأهم أمام الخلائق يوم الموقف العظيم.

قال – سبحانه وتعالى- مذكراً عيسى ابن مريم بنعمه عليه وعلى والدته:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

وتمييز ذكر عيسى ابن مريم – عليه السلام- عن غيره وسؤاله من دون الرسل المجتمعين، بحضرة رب العالمين – سبحانه وتعالى- يوم القيامة: هو توبيخ وتكذيب لمن عبدوه ظانين أنه إله في هذه الدنيا أو شريك لله في ملكه، أو هو ابن الله.

وتكريم له – عليه السلام- ولأمه البتول أمام الخلائق مع تبرئته من دعوى ادعاء الألوهية التي ألصقها به عباده من النصارى غلوّاً وجهلاً وكذباً واتباعاً للهوى والشيطان الرجيم.

وتعداد نعمه – سبحانه وتعالى- على عبده عيسى ابن مريم وذكر هذه النعم مفصلة من الله عليه؛ دليل واضح أن عيسى – عليه السلام – ليس بإله ولا هو ابن إله، وما هو إلاّ رسول أكرمه ربه بالرسالة كباقي رسل الله – عليهم السلام – فهو عبد الله ورسوله.

مُتقبل لنعم الله عليه شاكر عابد طائع لربه وخالقه. وقد ذُكرت هذه النعم بالتفصيل لعل قلوب ممن عبدوه من دون الله تلين وتخشع وتستنير، فتستجيب لهدي الله عند سماع هذه الآيات الكريمة التي تزيل أسمك الغشاوة، وأحلك الظلمات. وتبدد غيوم الجهل والشك والتردد؛ فتنير طريق الخير والصلاح.

وذكر والدته البتول الطاهرة؛ اكبر دليل، وأعظم برهان، على أنه إنسان مخلوق، مُكرم بالمعجزات وبالرسالة والنبوة.

ثم وبتكريمها، رفع الشبهات التي ألصقها اليهود بها، من صفات مذمومة،

وأخلاق فاسدة، وسيرة سيّئة فلا تكرم هذا التكريم العظيم –ومن رب العالمين- إلاّ الطاهرة الموحدة العابدة.

ومن نعم الله عليه مساندته وتقويته في حمل دعوته، وتبليغها بمعونة جبريل الملك – عليه السلام- وذلك بأمر الله.

ثم تقويته بالمعجزات:كتكليم الناس في المهد صبياً، وفي الكهولة نبياً. وذكر كلامه في سن الكهولة طبيعيّ ومن باب أولى ما دام تكلم في المهد؛ وهو نبيّ مُرسل، لا بد له أن يتكلم؛ ليوصل أمر الله للبشر في الكبر

ومن هنا، قد يكون كلامه في سن الكهولة مربوط بمعجزة رجوعه للأرض بعد عشرات القرون، وذلك في آخر الزمان. كما تذكر الروايات – والعلم عند الله– وقد تكررت كلمة «بإذني» في هذه الآية حتى تسمعها الأسماع، وتعيها العقول؛ فتؤمن بأن هذه المعجزات التي كانت بسبب الشبهات التي جعلت النصارى يدعون أن عيسى إلهاً أو ابن إله ما هي إلاّ بأمر الله الحقيقي، وبإذنه، وليست من صنع عيسى ابن مريم- عليه السلام-

وقد بينت هذه الآيات مقدار ضعف عيسى – عليه السلام – أمام جبروت بني اسرائيل، وتعنتهم وكيدهم المشهور.

فبين – سبحانه وتعالى- أنه هو الذي منع، ودفع بل وحمى نبيه عيسى – عليه السلام – من ظلم واعتداء بني اسرائيل عليه فلو كان رباً –كما يزعمون- لما احتاج لهذا العون، ولكان قاوم، وعرف كيف يدفعهم عن نفسه – عليه السلام-.

فتذكيره بهذه النعمة وفي أيام الشدة والتبليغ واتهام بني اسرائيل له بالسحر؛ لهو إثبات قاطع وحجة دامغة أنه بشر، وليس إله. وفي هذه الآية الكريمة تنويه أنه لم يقتل ولم يُصلب لحماية الله له وكف أيديهم عنه. قال تعالى: ﴿... وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ ...﴾ [المائدة: ١١٠].

روح القدس: هو جبريل - عليه السلام- أمره ربه أن يُعين ويقوي ويدافع عن رسول عيسى- عليه السلام-.

الكتاب: هو تعليمه الكتابة والخط، والحكمة: هي الفهم بمعاني الكتاب، وتصريف أمور الدعوة، ونشر الدين.

وقد ذكر مرضين يصعب الشفاء منهما: أما الأكمه: فالذي يولد أعمى، وأما الأبرص: فهو المصاب بمرض البرص الذي أعجز الطب إلى اليوم ويصيب الجلد.

وأما البينات التي جاء بها عليه السلام فهي الأدلة والبراهين القاطعة على

نبوته ورسالته، مما أثار براكين الحسد والغيرة عند بني إسرائيل، فهموا بقتله، فحماه الله منهم، ومن مكرهم؛ فلما عجزوا، اتهموه بالسحر كما هي عادة الكفار المكابرين عندما يسطع أمامهم نور الحقيقة.

الله - سبحانه وتعالى- هو الذي ألهم الحواريين أن يؤمنوا بالله وبُرسله. قال - سبحانه وتعالى – في هذا الأمر:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

ومن البراهين القاطعة أن عيسى ابن مريم - عليه السلام- من البشر، عبد لله، وأن دخول الحواريين في هذا الدين الحنيف، وتمسكهم بكلمة التوحيد، هو إلهام من الله - سبحانه وتعالى- ومن فضله ورحمته وكرمه والحواريون هم كبار حزبه - عليه السلام- الذين نقلوا عنه تعاليم الدين، ونشروها في المعمورة فقد ألهمهم - سبحانه وتعالى- كلمة التقوى والإيمان وكله من فضله ونعمائه - سبحانه وتعالى- فقد آمنوا بالله وبرسله، ومن هؤلاء الرسل عيسى ابن مريم - عليه السلام- وهذا يعني أن الفضل كله لله الهادي القادر الملهم؛ فقد ألهم الجذر في النبات أن يتجه نحو الأرض، والساق نحو السماء، كما ألهم النحل وهو حشرات صغيرة أن يعيش في مجموعات منظمة، وأن يتخذ بيوتاً، وأعضاء الجسم أن تقوم كل منها بدورها بأمر ربها.

هذا وقد أشهد الحواريون الله على إسلامهم مفتخرين بهذا الدين، مستسلمين منقادين لله في الطاعة والعبودية.

=١١=

قصة المائدة

إن قصص القرآن الكريم هي عظات وتحذير للمسلمين، ما وضعت في كتاب الله للتسلية أو للتاريخ، أو عظة لمن نزلت فيهم وقد بادوا وانتهى عملهم من الدنيا.

من هذه القصص قصة الحواريين مع نبيّ الله عيسى ابن مريم - عليه السلام- حيث طلبوا منه أن يسأل ربه مائدة جاهزة يأكل منها الناس؛ ليكون إيمانهم بالمشاهدة مع الخبر أقوى وأثبت، فتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم وسؤالهم هو اقتراح وليس عنادا ً.

وقد سبقهم نبيّ الله إبراهيم الخليل - عليه السلام- فسأل ربه: كيف يحيي الموتى؟ وذلك أنه أحب أن يرى بعينيه ما يؤمن به، والنظر أقوى من الخبر.

فاستجاب له ربه قال الله – سبحانه وتعالى- في هذا الأمر: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

قال – سبحانه وتعالى- يخبرنا عن طلب الحواريين هذا، وكيف استجاب لهم: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

وقد خاف - عليه السلام- من تسرب وسوسة الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء لقلوبهم فقال لهم - عليه السلام-: ﴿...اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

لأن الله لا يعجزه شيء. وقد وعظهم خوفاً من عدم تحملهم نتائج هذا الطلب من وجوب الطاعة والثبات على الإيمان.

والعظة للمسلمين في هذه القصة عظيمة، خاصة والقرآن الكريم ينزل حتى

لا يسأل المسلمون مثل هذه الطلبات، فينزلقوا في نتائجها، كما حصل لأصحاب المائدة هؤلاء.

وقد يكون هذا الطلب من جمهرة الناس وعاميتهم ولكن السؤال كما تذكر الآية الكريمة، كان على لسان ممن عرفوا بالإيمان الصادق القوي، الحواريون الذين مُدحوا، فمن هنا بينوا الدافع والداعي لهذا الطلب.

قال الله – سبحانه وتعالى- يذكر ويبين دوافع هذا السؤال:﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ١١٣].

قالوا: أنهم يريدون الأكل من هذه المائدة؛ فتطمئن قلوبهم لمشاهدة هذه المعجزة، فتسكن نفوسهم والإيمان بالمشاهدة أقوى واثبت من الإيمان عن طريق الخبر؛ فيقوى إيمانهم، ويزيد يقينهم برسالة رسول الله عيسى - عليه السلام-؛ لاستجابة الله لطلبه بإنزال تلك المائدة ثم ليشهد من حضر هذه المائدة، وأكل منها أقول: يشهد من لم يحضر؛ فهذه الأسباب والدوافع والعلل، دفعتهم للسؤال.

ومع هذا وقع بعضهم في المحذور. فمن شاهد هذه المعجزة؛ يجب أن يزداد يقيناً وثباتاً، وأن لا ينتكس، ويرتد مشركاً بالله وهنا يكون جرمه عظيماً وعذابه أليماً. وهنا ملاحظة تثبت عبودية رسول الله عيسى - عليه السلام- لله ربه؛ فقد طلب منه الحواريون أن ينقل طلبهم لله ولو كان هو إلهاً لطلبوا منه مباشرة أن يحقق أمنيتهم هذه وهذا دليل على أن فكرة تأليه عيسى - عليه السلام- جاءت متأخرة في الدين النصراني، ولم تكن في عهد عيسى - عليه السلام- وتلامذته الموحدين المؤمنين.

وعند سماع الدوافع لهذه المائدة، طلب - عليه السلام- من ربه أن ينزل هذه الآية. قال الله - سبحانه وتعالى- مبيناً ما طلبه رسول الله عيسى - عليه السلام- منه سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤].

وفي هذا الطلب إثبات جديد، يُضاف لغيره، وبيان بعجز نبي الله عيسى - عليه السلام- إلاّ بمعونة ربه.

فلو كان إله –كما تدعي النصارى- لما لجأ إلى الله مستعطفاً، أن ينزل تلك المائدة مع بيان الهدف منها، وذلك ليكون عيداً اسبوعياً يحتفل به النصارى إلى اليوم، وهو يوم الأحد.

ومعجزة يتداولها الناس والركبان: وتطميناً لقلوب الذين اتبعوه، وسكينة لهم. ثم يطلب عليه السلام وبكل خشوع، وتذلل من ربه أن يرزقهم حيث قال:﴿... وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

ولا نعرف كيف تعمى البصائر والأبصار عند مَن يدعون كذبا وبهتاناً أن عيسى ابن مريم - عليه السلام- إله رغم هذه الآيات الكريمة المنيرة الدالة على عجزه، وتذلله في طلبه هذا.

ولم يثبت عنه أنه أتى بمعجزة من ذاته بل كلها بأمر الله وإذنه ومعونته. كما لم يثبت عنه أنه ادعى الألوهية أو أنه شريك لله في ملكه. ولأهمية هذا الأمر؛ فلو كان هناك مما ادعى النصارى فيه كان ذكر ذلك.

ويستجيب الله لطلب رسوله عيسى ابن مريم، ولكنه ربطه بوجوب الطاعة قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥] فالثبات على الإيمان، والعمل بما أمر الله ممن يشاهد هذه المعجزة رأي العين؛ فمن أكرمهم الله بالمشاهدة أوجب عليهم الشكر ومن ينحرف ويرتد بعد ذلك المشاهدة، فقد استحق أعظم وأشد العذاب. وقد وصل التوعد والتهديد درجة عظيمة، لمن يكفر بعد المشاهدة، واستجابة الطلب. وقد حصل ذلك فمسخهم رب العالمين قردة وخنازير.

وهذا الوعيد قد يطول أمة محمد ﷺ، إذا نهجوا نفس المنهج، أو سألوا رسول الله ﷺ، كما سأل هؤلاء فيقعون في المحذور.

فمن هنا وجدت هذه العظة إذن صاغية عند المسلمين؛ فتأدبوا واتعظوا بغيرهم، وكل هذا من فضل الله وهديه

=١٢=

سؤال عيسى ابن مريم -عليه السلام- عما أحدثه بنو إسرائيل من الشرك

قال الله سبحانه وتعالى يصف موقف من اتخذ عيسى ابن مريم – عليه السلام- إلها وما فيه من التقريع والتوبيخ أمام الخلائق يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ويأتي دور التوبيخ والتقريع لمن اتخذ عيسى وأمه إلهين وبأبلغ الأساليب، وأشد التقريع، وأصدق اللهجات ومع أن الله –سبحانه وتعالى- يعلم كل شيء؛ ولا يحتاج لشاهد على قوله، ولا مُزكياً لحكمه فقد جعل من سؤاله عيسى، حيث قال له:

﴿...ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ...﴾ [المائدة: ١١٦].

أقول: جعل من هذا السؤال، في ذلك الموقف المخيف المرهب، أمام الخلائق والأنبياء والصالحين؛ وإجابة نبي الله عيسى ابن مريم -عليه السلام- عليه بالنفي، أعظم واشد توبيخ لمن ادعى ألوهيته - عليه السلام-

ثم إن ضم أمه معه هي من باب أن أم الإله –لا شك- هي أقدم منه، وحملته ووضعته وربته فهي أحق بالألوهية منه، لو كانت ألوهيته جائزة صحيحة.

وطبعاً كل هذا الهراء والكذب لم يحدث، وما هو إلاّ زيادة في الشرك والكفر، وهو من فعل الشيطان ووسوسته، وفتنته للنصارى، وسطحية التفكير، واختلاط الأمور، والشك الذي أوصلهم للخروج عن الخط المستقيم. خط الأتقياء الصالحين، خط المستنيرين بنور الإسلام.

أقول: أوصلهم الشك والتخبط إلى دياجير الظلمة، فاتخذوا من الوهم نهجاً، ومن الشرك ديناً؛ فخرجوا عن مقياس العقل السليم، وغاصوا في مستنقع الضلال، وانقسموا أراء مختلفة في هذا التصور الذي لا يدخل العقل، والإنقسام، وتناقض الآراء هو أمر طبيعي في غير الأمور لأن الحق واحد، والباطل كثير

متشعب؛ يصفه كل حسب تصوره، وهوى نفسه ورغبته.

هذا وقد كان جواب عيسى - عليه السلام - الذي بدأه بقوله:"سبحانك" تأدباً وخضوعاً لعزته – سبحانه وتعالى- وتعظيماً وتنزيهاً لله عما أضيف إليه.

وقد تبرأ - عليه السلام - من هذه التهمة العظيمة المخيفة المرهبة، تلك التي لو نسبت للجبال لأذابتها وللأرض لزلزلتها؛ لأن الشرك أمر عظيم، وجرم فظيع. واشهد
- عليه السلام - الله على ذلك.

ثم ذكر القاعدة الأساسية للعلاقة بين المخلوق الضعيف المحدود والخالق العالم القوي حيث قال - عليه السلام - "إنك أنت علام الغيوب» فإن كنت قلت للنصارى أعبدوني وأمي من دون الله، فقد اطلعت وعلمت ذلك؛ لإحاطة علمك بكل شيء. وليس من حقنا ولا مقدرتنا أن نتعدى حدود المخلوق، لنتطاول على الخالق.

قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

هذا ولم تظهر فكرة الألوهية لعيسى – عليه السلام - ولأمه من قبل النصارى أثناء وجودهما في الأرض، وبين الناس فيها؛ بل بعد صعوده – عليه السلام - للسماء فقط، وقد يكون بعد ذلك بأجيال، ثم يتابع – عليه السلام - إجابته، بكل تذلل وخشوع: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

لم يخرج عن أمر الله، فقد قال للناس: ﴿...ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ...﴾ [المائدة: ١١٧] .

وفي تقديم كلمة"ربي" ما فيها من التبرؤ من فكرة ألوهيته - عليه السلام - التي نسبتها إليه النصارى، فهو عبد الله ورسوله، المطيع لأمر خالقه، الأمين في تبليغ رسالته، الواضح في نهجه وسلوكه، الصابر على كيد بني إسرائيل، القوم البُهت.

ثم يتابع قوله، موضحاً سلوكه وأسلوبه في تبليغه لدعوته، وأنه شاهد على الناس أثناء وجوده بينهم – والله خير شاهد – ولكنه، وبعد رفعه - بأمر ربه- إلى السماء، لا يعلم ما أحدث الناس بعده.

فالله هو الشاهد والمراقب على أعمال الناس وعلى أقوالهم؛ ثم يؤكد ذلك وبكل تذلل، أن الله يشاهد كل شيء وهو علاّم الغيوب فالله – سبحانه وتعالى-

يشهد قولهم وتقولهم عليه.

عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال:" يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراة غرلاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم - عليه السلام- ألا وأنه سيُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي، فيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿... وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[المائدة: ١١٧]. ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨] قال: «فيُقال لي: إنهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» رواه البخاري.

ففي هذه الموعظة من رسول الله محمد ﷺ وإخباره عما سيكون – بما علّمه ربه – والحديث عن بعض المغيبات، وأنه ستكون ردة بعد رسول الله محمد ﷺ.

وفي قوله – ﷺ: «كما قال العبد الصالح» يعني فيه عيسى ابن مريم- عليه السلام- فهو عبد لله كباقي الأنبياء والرسل – عليهم السلام – وليس إلهاً كما ادعت النصارى.

ويتابع - عليه السلام- إجابته، كعبد يخاطب سيده:﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وفي هذه الآية الكريمة من لطف الجواب، وحب الرُسل لمن أرسلوا لهم ورحمتهم بهم، رغم عنادهم وإيذائهم. فقد قال

- عليه السلام-: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ ...﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل – عليه السلام-: فإنهم عصوك بل طلب الرأفة بهم، والعطف عليهم؛ ثم بين أن العزة لله وهو الحكيم، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء.

الله يمتدح الصادقين، وأنهم هم الفائزون قال سبحانه وتعالى:﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩].

وكان جزاء الصادقين في إيمانهم وتقواهم، أعظم أنواع الجزاء، وذلك على إخلاصهم وصدقهم، ومنهم رسول الله عيسى الذي صدق في قوله وفي تبليغ رسالته، وفي إخلاصه لله في العبودية، فهو عبد الله ورسوله.

والصدق النافع هو صدق الدنيا؛ لأن في الآخرة جزاء ولا عمل وفي الدنيا عمل صالح لمن اهتدى، ورضى الله عن العبد يوم القيامة دائم مستمر، وهذا ما يُفهم من خلود أهل الجنة فيها ابداً، «ورضوا عنه» أي عما أثابهم به من الخير العميم وهذا هو الفوز الحقيقي وعيه فليتسابق المتسابقون ويتنافس المتنافسون.

وتختم هذه الآيات الحكيمة بأن مالك الملك في السماء والأرض هو الله – لا شريك له حيث قال – سبحانه وتعالى-: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرُۢ﴾ [المائدة: ١٢٠].

هذه الآية الكريمة تبين إبطال دعوى النصارى بأن لله شريك في ملكه، فبينت هذه الآية أنه – سبحانه وتعالى- مالك السماوات والأرض وما فيهن وحده، وهو القادر الوحيد على كل شيء، وهذا يعني ضمناً أن جميع البشر من آدم وآدم من تراب، ولن يصلوا مهما علوا درجة الألوهية، كما ادعى المشركون من النصارى في عيسى وأمه فلله القدرة التامة الشاملة، والحكم المطلق، لا شريك له، سبحانه وتعالى.

=١٣=

اليهود والنصارى على اختلاف رأيهم في الدين يتفقون على تخريب بيوت الله

تمنى قتلة الأنبياء، أولاد القردة والخنازير؛ أن يجمعوا خير الآخرة لخير الدنيا؛ فتمنوا الوقوف على أبواب الجنان لصدّ البشر غيرهم عنها، واحتكارها لهم؛ وبدون إيمان ولا عمل يوصلهم لتلك الأبواب الطاهرة.

وعندما رد النصارى على اليهود - وكما هي العادة – في المنافسة بينهما- قال النصارى: بل الجنة هي حكر لهم فقط من دون الخلق.

فيخبر - سبحانه وتعالى- عن إدعاء الفئتين، فيمن يدخل الجنة، وكأن الأمر بأيديهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ ...﴾ [البقرة: ١١١] فيا حسرة على العُبّاد المؤمنين من البشر، كيف ذهب سعيهم؟ ونُهبت حصتهم، وأخذ حقهم؛ وبدون دليل ولا مبرر وكأن الجنة: هي مستعمرة إفريقية من مستعمرات الأرض، أو أرض مغتصبة من أرض آسيا، يمتلكها القوي؛ فيشرد أهلها أو يدفنهم أحياءً في تربتها، أو يتخلص منهم بالنفي والتجويع، ثم تحاط تلك المستعمرة بسياج من المدافع والصواريخ، لاستمرار حمايتها لهم وحدهم هذا مبلغهم من العلم وهذا تصور من يقيس حكم الله على البشر، بمقاييسهم الفاسدة، وعقولهم المحدودة.

قال اليهود عيسى ابن زنا، ومريم أمه زانية، ثم هو ساحر، وما معجزاته الاّ فناً من فنون السحر، فرد النصارى عليهم، رفعاً لمنزلته – عليه السلام- بغلو أعظم، وميزة أضخم، حتى يسبق الأوليين والآخرين من الرسل والأنبياء، فقالوا هو ليس برسول ولا نبي بل هو أجل وأكبر من ذلك: إنه إله أو ابن الله، أو شريك لله في ملكه.

ومن هنا فقد تعدى الأمر الجدال والنقاش والبحث في الحجج والبراهين والبينات، فالأمر اصبح مبادرة في الكذب، والغلوّ في الرأي؛ بدون دليل صادق، ولا حجة تطمئن لها النفس، ويسكن لها العقل السليم.

فيرد رب العالمين – سبحانه وتعالى- على كلا الطرفين بقوله لرسول الله

محمد ﷺ: ﴿...قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١] ليطلب منهم البرهان الصادق على هذه الأمنية، وهذا الغلوّ من التصور، فأين هي البينة الواضحة؟ أو الوكالة الصادقة عن رب العالمين، على التصرف في مفاتيح الجنة؟ وهل هناك مالك لتلك المفاتيح غير الله فيدخل من يشاء، ويحرم من يشاء، انه الواحد الأحد، خالق الجنة والنار، وهو القائم بالعدل في هذا الكون الواسع.

وتأتي قاصمة الظهر لكل مفترٍ، متقول على الله، متطاول على حكمه وإرادته؛ حيث أجابهم – سبحانه وتعالى- مبيناً لمن تكون الجنة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

فهي لمن يدفع ثمنها، من الطاعات والأعمال الصالحة والتقوى، لمن يحب الله ورسله والمؤمنين، هي لمن استسلم وخضع لله، واخلص النية والعمل للرب المعبود بحق، هي لمن عبد الله حق العبادة، وتوجه نحو طريق الخير والصلاح، يبتغي رضا الله، ووجهه الكريم، وانحرف مبتعداً عن طريق الضلال والعصيان والتكبر، ولم يحكم الهوى والنفس الأمارة بالسوء، ذلك الذي أطاع الله وعصى الشيطان.

هذه صفات من يدخل الجنة مع الأنبياء والمؤمنين القانتين أطاعوا الله، فأحسن وفادتهم، وأجزل لهم في الأجر والعطاء، ومن أكرم من الله القادر الخالق؟ ثم بشرهم بالاطمئنان والسرور الدائم، والخلود في جنة عرضها السماوات والأرض، وأعدت للمتقين كما أُعدت جهنم للكافرين المكذبين المشركين العاصيين فليس الأمر بالتمني بل بوزن أعمال الخلق بميزان عادل أمام حاكم عادل يعلم السر وأخفى.

ورغم أن التوراة والإنجيل في توافق تام؛ لأن مرسلهما هو الله خالق الخلق، العالم بمصلحة خلقه، وما ينفعهم وما يضرهم وكلاهما يدعو لتوحيد الله، والإيمان برسل الله فقد اشتد العداء بين اليهود والنصارى واستمر ولا يزال.

فتكيل النصارى لليهود التهم، كما يكيل اليهود للنصارى التهم، وهذا دليل فسادهم، وعدم توافق المقاييس بينهما، وعدم اعتمادهما على الكتب المنزلة عليهما والتي يصدق كل منها الآخر، كما يصدقان بالقرآن الكريم ويبشران به قبل نزوله ذلك الكتاب الذي يوجب على من تبعه الإيمان بكتب الله ورسله بدون تفريق.

ولكن تحكيم الهوى، واتباع الشيطان الرجيم يضل ويفسد، كما أن الحسد والكيد والتكبر من مفسدات الدين والرأي، ووجهة النظر في الحياة؛ وينتجان التردد والتخبط والشك والضلال.

قال الله - سبحانه وتعالى- يصف العلاقة السيئة بين اليهود والنصارى حتى في أسس الدين:﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة: ١١٣].

وعبر التاريخ والقرون الطويلة، كان العداء والكيد كذلك القتل والإنتقام هو المخيم على العلاقات اليهودية والنصرانية، ولا يجمع كلمتهم إلاّ المصالح المادية ثم تنقطع بإنتهاء تلك المصالح.

حتى أن نصارى القدس يوم الفتح العمري لها، قد اشترطوا على المسلمين لفتح المدينة:عدم تمكين اليهود من الرجوع لهذه المدينة المقدسة؛ وذلك للعداء المستحكم بين الدينين.

وفي محاكم التفتيش في الأندلس أثناء طرد المسلمين منها، عُذب وطُرد اليهود مع المسلمين بأيدي النصارى وفي العصور الوسطى لم يعز اليهود إلاّ في ظل الحكم الإسلامي العادل، أما في أو روبا وإلى اليوم ليس لهم احترام إلاّ لمصلحة وتنتهي بإنتهاء تلك المصلحة كاجتماعهما اليوم على محاربة المسلمين ودين الإسلام

وفي سبب نزول هذه الآية الكريمة عن ابن عباس: "قدم نصارى نجران على النبي ﷺ فأتتهم أحبار يهود»، فتنازعوا عند النبي ﷺ. وقالت كل فرقة منهم للأخرى: لستم على شيء.

وقد تبع مشركو العرب اليهود والنصارى في خلافهما؛ فتباينت آراء الجميع، وابتعدت المسافات بين آرائهم ومعتقداتهم بل وأصول وأسس الدين عندهم:فمن مؤمن بأن عيسى ساحر ابن زنا لآخر مؤمن أن عيسى هو الله وثالث يقول بأن الملائكة هن بنات الله.

وهذا الأمر ساعد في رغبة الصالحين من البشر لدين واضح الأسس، بين الأحكام، يأتي بالقصص الحق، والرأي الصحيح فيما اختلف فيه البشر، يوحد الله، ويجيب على تساؤلات الجميع بالبينات والحجج والبراهين الصحيحة يطمئن له العقل السليم، وتسكن إليه النفس المترددة، التي أعيتها العقائد المتناقضة الفاسدة.

فكان في طيات القرآن الكريم المهيمن على ما سبقه من الكتب مع إيمان المسلمين بتلك الكتب أنها مرسلة من عند الله. أقول: كانت ضالتهم المنشودة، ففيه الخير والرحمة والوضوح التام، والإجابة الصادقة، التي يتقبلها العقل المستنير، فيحصل اليقين الذي تاقت إليه النفوس الصالحة المؤمنة.

فاندحر الضلال والفساد والشك والتردد الذي قد وصل به الأمر إلى الإقتسام والإحتكار، أبعد من سطح الأرض، فقد وصل أبواب الجنان وكلا الطرفين المتنازعين"اليهود والنصارى" يريد الوقوف على الأبواب الثمانية ليمنع الآخرين من الدخول والجواب الطبيعي سيقول كل منهما للآخر لست على شيء؟؟؟ وأن الله قد خص أحد الفريقين بالرحمة والخير دون باقي البشر: ﴿...فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [البقرة: ١١٣].

من أعظم الجرائم وأنكى أنواع الظلم؛ منع بيوت الله تلك البيوت التي بنيت وخُصصت للصلاة والعبادة من الصلاة فيها؟ وأحرم من ذلك وأشد هو خرابها وهجرها بل وتدميرها وحرقها، كما فعل اليهود بمساجد مدن وقرى فلسطين، وحرق المسجد الأقصى.

ومن قبله - في الحروب الصليبية- وتدمير مساجد ساحل الشام وهجرها وذبح المصلين فيها وفي ساحة الأقصى المبارك من قبل الصليبيين.

وقد يكون الخطاب في هذه الآية تعجب من قول النصارى الذين يقولون أن الجنة لهم من دون الناس وهم يعظمون المسجد الأقصى والأرض التي عاش فيها المسيح - عليه السلام- ومع هذا ولعداوتهم لليهود ساعدوا الغزاة على تخريب هذا المسجد المبارك ومنعوا المؤمنين من اليهود من دخوله. كما منعوا المسلمين – أثناء الحروب الصليبية – من الصلاة فيه؛ بل ودنسوه بالقاء القاذورات فيه، وحولوه إلى مرابط للخيل قال الله – سبحانه وتعالى- مبيناً لنا أشد وأعظم أنواع الظلم: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [البقرة: ١١٤].

الذين سعوا في خراب المساجد قد لا يكون من مشركي العرب، وذلك لأنهم رغم شركهم كانوا يحجون للبيت الحرام ويقدسونه، ويكرمون سدنته، ويحترمونهم أشد الاحترام.

فالأمر يتعلق بالمساجد عامة، وذلك لأن الآية الكريمة تفيد العموم، كما ذكرت المساجد بصيغة الجمع، فليس المقصود هو المسجد الأقصى فقط - حماه الله من كيد الكائدين- لكونه الآن في خطر، وأيّ خطر؟؟ فلم يعد الأمر في تدنيسه، وتخريبه، وهجره، ومنع المؤمنين من الصلاة فيه؛ بل محاولة إزالته من الوجود.

كما بينت هذه الآية الكريمة حال من يعمل لتخريب مساجد الله، فهم يدخلونها خائفين ومرعوبين، وسبب هذا الخوف وذلك الرعب، لأنهم يدخلون كالصوص للتخريب وليس للعبادة ودخول المساجد يكون عادة للسكينة والاطمئنان، واستجابة لأمر الله ويكون السلطان عليها لدولة الإسلام.

وهذه حالهم أثناء حكم الإسلام، وعزة الأمة الإسلامية قبل أن تجتمع عليها أمم الكفر كما تجتمع الأكلة على قصعتها.

عندما كانت تلك المساجد الطاهرة تستقبل وفود المؤمنين المصلين، وطلبة العلم، وحلقات التدريس لا أن تستقبل وفود المتنزهين المتفرجين، فكانت أماكن عبادة لا أماكن سياحة ولهو، وذلك حين كانت السيادة لشرع الله.

هذا وقد اعتاد الخلفاء والأمراء على توصية الجيوش الإسلامية - جيوش الفتح المظفرة- عدم اعتداء على العُبّاد، والمنقطعين للعبادة في صوامعهم وبيعهم.

وقد جمعت هذه الآية الكريمة بين العذابين: عذاب الدنيا بالقتل والسبيّ أو دفع الجزية وما فيها من ذل، وعذاب الآخرة وهو أشد وأنكى.

الله موجود في كل مكان، وهو المالك للكون جميعه، فأينما اتجهت في دعائك فثم وجه الله قال - سبحانه وتعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

وفي هذه الآية تعظيم للمساجد عامة، ووجوب تكريمها، وتكريم العباد وطلبة العلم فيها، وصونها من الدنس والهدم، وعدم صد الناس عنها للصلاة والعبادة والدراسة.

وفي الآية تنويه بالتيسير في الاجتهاد في استقبال القبلة مع عدم التسيب؛ فقد فرضت القبلة على المسلمين نحو بيت الله الحرام وفيه الكعبة المشرفة، ولكن تُرك الأمر لاجتهاد المُصلي، وذلك بقدر استطاعته ذلك وهذا الأمر نوع من التيسير فلو صلى واجتهد في التوجه نحو البيت الحرام، وثبت خطأه فلا يعيد صلاته.

وكذلك من صلى قبل تحديد القبلة، كمن صلى نحو المسجد الأقصى – فقد صلى المسلمون بضعة عشر شهراً نحو القدس وذلك قبل تحديد القبلة فلا يعيد

صلاته.

والله المتفضل على عباده، غنيّ عن أعمالهم، فأينما اجتهد المصلي نحو القبلة، فهو تعظيم وتكريم لله، فينال رضا الله وثوابه.

قال الله - سبحانه وتعالى- يبين سعة ملكه، وحكمه المطلق وبدون منازع ولا شريك وكل ما في الكون يأتيه طائعاً او مكرهاً، ومن هذه صفاته لا يحتاج لشريك ولا لزوجه ولا لإبن قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] وعلى رأس من قال هذه الفرية هم النصارى وتبعهم اليهود ثم العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله وقد أشركت هذه الفئات الثلاثة لقولها هذا. تبرأ الله - سبحانه وتعالى- عما نسبوه إليه، تعالى في ملوكته عن صفات البشر ليس كمثله شيء لم يلد ولم يولد فهو منزه عن هذه الفرية الشيطانية.

كل ما في الكون لا يخرج عن طوعه وإرادته من مكونات الذرة وما فيها من طاقة إلى أضخم الكواكب والنجوم، قال تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعًا وَكَرۡهًا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

والنبات طائع: فالجذر يتجه في نموه للأسفل والساق لأعلى وكل ما في الحيوان والإنسان والنبات والجماد من طاقة وأجهزة تأتمر بأمره، ولا تخرج عن طوعه ﴿...كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

الأجسام والنفوس خاضعة لعظمته - سبحانه وتعالى- خاشعة لجلاله، هو البارئ الخالق المبدع فأنى للمخلوق كعيسى عليه السلام أن يكون رباً !!!

الولد حسب مقاييس البشر، والعقول القاصرة، والمعلومات المحدودة: ينشأ عن إجتماع ذكر بأنثى، وكلاهما قد هيأه ربه الخالق البارئ بأجهزة ومصانع جسمية ونفسية، فهما ليسا حجرين جمعتهما مياه السيل فاصطدما، إنه الذكر يترصد أنثاه بعدما فكر واستجاب لدوافع نفسية وجسمية أوجدها الله فيه فلا يسكن جسمه ويرتاح إلاّ بالوصول لأنثاه، ومثله أنثاه، وكلاهما محتاج للآخر ولا يستقر له قرار ولا يهدأ له بال إلاّ بالجماع، هكذا خلق وهكذا خلقت؛ فتتكون الخلية الأولى في ذلك الولد ثمرة ذلك الاتصال.

فأين هذا من صفات الرب الذي لا يحتاج زوجة ليسكن إليها؟ ولا لولد ليعينه

ويكون خليفته عند عجزه أو موته أو حاجته وكل هذا من صفات البشر لا تنطبق على صفات الكمال التي يجب أن يتصف بها الرب الخالق.

ويأتي الربيع وتعلو أصوات الطيور والحشرات الذكور والإناث، كل ينادي ويُغري الآخر بالقدوم البعض يرقص، والبعض يمرح، والبعض... والبعض... ومثلها باقي الحيوانات، خُلقت وفي أجسامها غريزة تدفعها وإن لم تشبع يحدث هيجاناً وترصداً ومطاردة، فلا تسكن حتى تشبع، كل هذا لإنجاب أبناء، وكلاهما محتاج للآخر الذكر والأنثى، والله غير محتاج، وليس الحاجة من صفاته -سبحانه وتعالى-.

وفي النبات زهرة تفتحت مكللة بتاج من الشذرات الجميلة، يفوح منها العطر، تنتظر حبوب اللقاح بكل شوق، وإذا لم تصل تذبل هذه الزهرة، آسفة لحظها وتعاستها، حيث ماتت ولم تنتج ثماراً وهل تأتي الثمار بدون ذكر وأنثى، وكل يحتاج الآخر، والله غير مًحتاج.

المغيبات وما وراء العقل، لا تأتينا إلاّ نقلاً وكيف نتصور - بعقولنا القاصرة- أشياء غير محسوسة ولا ملموسة لنا؟ وكيف نحكم على أشياء لا تنطبق صفاتها على ما نعهده ونعلمه في هذه الأرض وما أحاط بها من سماء، فبيننا وبين علم الغيب صمام لا يفتحه إلاّ الله الخالق.

نقلت لنا الكتب السماوية صفات بعض ثمار الجنة وبعض صفات عذاب النار كما نقلت لنا بعض ما يحدث يوم الحشر والحساب فآمنا بها نقلاً وليس عقلاً، وبأمر الله وإرادته وليس بأمرنا وقدرتنا المحدودة. وإلاّ كيف نحكم ونتكلم ونصف ما لم يقع تحت حسنا ولا يُقاس بمقاييسنا؟؟؟

وهذه الشبهات وتطبيق المحسوس الملموس على المغيب الذي لا نعرف قوانينه ولا بما يقاس، أدت هذه بمن إدعى الألوهية لبشر كعيسى –عليه السلام- إلى الشرك والكفر والتردد والإختلاف.

ومن أين لنا البراهين والبينات والحجج لإثبات هذه الترهات والتصورات التي ما أنزل الله بها من سلطان؟

وقد خلط هؤلاء بين معجزات الله التي يسند بها رُسله وبين صفات الكمال التي لا يتصف بها إلاّ الله الواحد الأحد، لا شريك له، فعيسى ابن مريم – عليه السلام- هو عبد الله ورسوله القائل لبني اسرائيل:﴿... أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ ...﴾ [المائدة: ١١٧].

أهل الكتاب يخيبون ظن المسلمين بمساندتهم المشركين من العرب ضد

المسلمين، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

كان الأمل في أهل الكتاب أنهم سينحازون لصف المؤمنين ضد المشركين، خاصة في بلاد العرب، حيث أن الإسلام في حاجة للنصرة والمساندة، وقد اجتمعت على محاربتهم قبائل العرب ذات الشوكة والمنعة، والتفت حول قريش صاحبة الزعامة الدينية في جزيرة العرب في ذلك الوقت؛ فهم سدنة الكعبة المشرفة، والقلب النابض في تجارة الجزيرة العربية.

كان هذا هو الأمل عند رسول الله محمد ﷺ وعند المسلمين خاصة، وأن القرآن الكريم قد امتدح مؤمني أهل الكتاب، الذين جاهدوا في نشر دين التوحيد في العالم في عهدهم.

كما أن القرآن الكريم قد اعترف بكتبهم المُرسلة من رب العالمين - جل جلاله- جميعها كما أنه لم يفرق بين أنبياء الله، عربهم وعجمهم.

فأخذ رسول الله ﷺ وبعد قدومه إلى المدينة المنورة، ودولة الإسلام التي أقامها في دور التأسيس، وهي تحبو، وتتلمس النصرة والعون لتبدأ مهمتها بتطبيق شرع الله، ونشر دين الله في الأرض، وتحطيم الحواجز المادية التي تقف أمام نشر الدعوة.

أقول: أخذ - ﷺ- في مجادلة يهود المدينة ومناظرتهم، واجتهد في ذلك ثم استقبال وفود النصارى من نجران وغيرها، ممن أرهبهم سرعة انتشار الإسلام في بلاد العرب؛ والإجابة على استفسارات وأسئلة الجميع في حلقات المناقشة ويطلب منه هؤلاء بعض المعجزات، وتفسير بعض الظواهر والإرهاصات، ثم اسئلة عن بعض المغيبات واليوم الآخر والجنة والنار، وقصص الأمم السابقة، ومعجزات الرسل والأنبياء.

أقول، أمام هذا السيل من الإستفسارات يُكثر الطلب ﷺ من رب العالمين، طمعاً في إسلام هؤلاء السائلين، المظهرين الليونة نحو هذا الدين الذي هلّ هلاله، وسطع نجمه، وانتشر ذكره، فأُجيب ﷺ الجواب الفاصل: بأن الكفر ملة واحدة، وصف واحد، وطريق واضح، لا فرق بين كفار أهل الكتاب، وبين المشركين في العالم.

وهذه الآية الكريمة تظهر القنوط من اتباع أهل الكتاب لرسالة الإسلام إلا

كأفراد هذا ورسول الله محمد ﷺ بين اظهرنا، يسنده الوحي فكيف اليوم وقد دارت الدائرة على أمة الإسلام؟ ويرى بعض المسلمين فائدة وربحاً لأمة الإسلام بالتقرب من أهل الكتاب ومناقشتهم والتفاهم معهم للوقوف معهم وموالاتهم ضد المشركين أو الملحدين في الأرض.

فقد أبلغ رب العالمين رسوله الكريم؛ بأن رضا أهل الكتاب، غاية لا تدرك، وهي مستحيلة التحقيق، فلا يشغل باله وفكره في طلباتهم، واجتماعاتهم، ولا يأمل خيراً منهم فهدفهم أن يترك دينه، ويتبع دينهم.

فلو تحققت لهم جميع طلباتهم، وأتيت لهم كل المعجزات، ما اتبعوا هذا الدين القويم الذي أوكل - سبحانه وتعالى- حماية كتابه لنفسه.

ونقول للمسلمين الذين يُشغلون أنفسهم، ويلهون أمتهم في اجتماعاتهم للتفاهم مع أهل الكتاب وبعد أن فضحهم رب العالمين في هذه الآية وأمثالها كثير في القرآن الكريم، أقول: لا يمكن للقرآن الناسخ لجميع الكتب السماوية، المهيمن عليها، المحفوظ من رب العالمين، أن تخلط أوراقه مع كتب حُرّفت وغُيّرت أحكامها حسب هوى الحكام والرهبان والأحبار عبر التاريخ وبشهادة رب العالمين في كثير من آيات القرآن الفاضحة لليهود والنصارى.

ثم يحذر سبحانه وتعالى رسول الله محمد ﷺ وتحذير الرسول هو تحذير لأمته إلى أن تقوم الساعة يحذره من اتباع أهواء أهل الكتاب، وإن اتبع اهوائهم فقد خسر سنده الحقيقي؛ بعصيانه لربه، وموالاته لأعدائه وأعداء الله، فلن يُنصر من الله.

و "العلم» الذي جاء للرسول محمد ﷺ هو قصص القرآن الكريم، وأخبار الأمم السابقة مع أنبيائهم، وما فيها من العظات والتحذير، وخاصة من اليهود والنصارى، فقد قتلوا بعض الأنبياء وكفروا برسالة آخرين فكيف بك يا محمد؟

هذا بيان وتحذير من الله المطلع على الغيب، العالم بما خلق، لرسوله الكريم خوفاً من إنزلاقه في بحر طلبات أهل الكتب الذين طمست بصائرهم عن معجزات أنبيائهم، فكفروا ببعض الكتب والرسل؛ كما قتلوا بعضهم فمكرهم عظيم، وكيدهم شديد، وهم قوم بهت.

فلو جمعت لهم كل ما طلبوا من معجزات، ما آمنوا برسالة الإسلام؛ لجحودهم المسبق، ولضلالهم المعروف، ولكفرهم بالحق، ولإتباعهم الشيطان الرجيم.

وفي هذا القول والنصح للرسول من الله؛ فيه تعريضاً لأمته الإسلامية، وتحذيراً لها من خطوب ومآمرات قادمة: يوم تجتمع الأمم على أمة الإسلام،

إجتماع الأكلة على قصعتها، فينظر المسلم حوله فلا يرى إلاّ كتابيّاً أو مشركاً أو ملحداً أو منافقاً او خائناً شارعاً سلاحه في وجهه، والكفر ملة واحدة، والتاريخ يشهد.

=١٤=

عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه

قال الله - سبحانه وتعالى- ينهى النصارى عن الغلوّ في أمر رسول الله عيسى ابن مريم - عليه السلام - ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

ينهى - سبحانه وتعالى- أهل الكتاب عن الغلوّ الذي ابتدعوه في رأيهم في رسول الله عيسى ابن مريم - عليه السلام- زوراً وبهتاناً؛ فتجاوزوا الحد حتى اتخذوه رباً.

هذا ما حذر منه وما نبهنا منه رسول الله محمد ﷺ حيث قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله» رواه البخاري

والحق الذي يُقال: هو أن عيسى رسول الله كباقي الرسل، وليس بإله ولا هو ابن الله ولا هو شريك لله في ملكه، وما من إله إلاّ الله الواحد الأحد، تنزه وتعظم عن أن يكون له ولد.

وإزالة للشك والتردد فقد عرّفنا الله - سبحانه وتعالى- تعريفاً بيناً واضحاً عن المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام- فقد نسبه لأمه، وعادة لا ينسب الولد لأمه بل لوالده فقط، فكيف يخفى والده، وهو عند النصارى –في عقيدتهم- هو الله؟

كما أن ذكر والدته «مريم» بالإسم وبدون كنية، والعادة المتبعة عند ذكر الزوجة، لا تُذكر بإسمها بل تُكنى: بالأهل أو أم العيال وهكذا عكس ذكر الإماء، حيث كن يدعون بأسمائهن.

وقد اخبر الله عن عيسى ابن مريم – عليه السلام- بأنه رسول من الله، وهذه أعظم وأكبر شهادة بأنه مرسل من الله، كباقي الرسل، وما خلقه بدون أب، ونُطقه وهو

طفل بكلام الكبار إلاّ إعجازاً من الله.

وأساس خلقه: هو كلمة"كن" فكان أن خُلق بقدر الله في رحم أمه ثم أمر الله جبريل أن ينفخ فيه، فدبت فيه الحياة - بأمر ربه-.

وطبعاً حسب مقياس الرب الخالق القادر، فالأمر سهل طبيعيّ، وذلك كنوع من الإعجاز؛ وإلاّ كيف كلم الناس وهو في المهد صبيّاً مخالفاً لطبيعة الصبيان، وهم في المهد.

وإلاّ كيف كانت تدب الحياة في عصا موسى – عليه السلام- بأمر الله، وبكلمة "كن" تكون - عليه السلام- والتصق نسبه بأمه العذراء البتول التي حملته ووضعته وأرضعته وتعهدته حتى كبر، وكل هذا أمر طبيعيّ، يحدث للبشر.

وأما قوله - سبحانه وتعالى- «وروح منه» تلك التي دارت حولها بعض شبهات من أله عيسى – عليه السلام- فقد عبر عنها رب العالمين – سبحانه وتعالى- في خلق آدم - عليه السلام- حيث قال لملائكته: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحِجر: ٢٩].

وقوله - سبحانه وتعالى- أيضاً في خلق آدم - عليه السلام- ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ...﴾[السجدة: ٩] ومع هذا، ورغم استعمال كلمة «روح» لم يؤله آدم

-عليه السلام- لا من قبل النصارى ولا غيرهم.

إذن فتأليه النصارى لعيسى - عليه السلام- هو نوع من الشك والبدع وردّت فعل لغلوّ كفار بني إسرائيل الذين اتهموا "مريم العذراء" بالزنا ولم يقروا بنبوة عيسى - عليه السلام- بل اتهموه بالسحر.

إذن كل ما في الأمر: أن الله أراد بعث رسول بكلمة «كن» في رحم بنت عذراء، وأمر جبريل- عليه السلام- بنفخ روح فيه كإعجاز في الخلق وكل هذا لا يتعارض مع قدرة الله المطلقة الذي لا يعجزه شيء.

ثم يأمر – سبحانه وتعالى- أهل الكتاب بالإبتعاد عن الشرك والكفر والتمسك بالإيمان بوحدانيته والإيمان برسل الله، ومنهم عيسى - عليه السلام- كرسول، وليس كإله.

كما وينهاهم عن الشرك وعقيدة التثليث «الأب والابن وروح القدس» والأب يمثل عندهم الوجود، والابن المسيح «العلم» والروح الحياة وهذا تخبط

في الدين، وشك في أصول العقيدة ومن هنا ظهرت التفرقة، واختلاف الرأي عندهم –لأن الصح واحد والخطأ متعدد كثير- وكذلك بينهم وبين الديانات الأخرى وخاصة السماوية منها.

ثم يأتي أسلوب التهديد والوعيد، وذلك بأمر الله لهم بالانتهاء عن السير في طريق الشرك والكفر والضلال وذلك بقوله - سبحانه وتعالى- لهم: ﴿...ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ...﴾[النساء: ١٧١] فيدلهم على الخير والصلاح، ولكن أنى لمن قادهم الشيطان، وزين لهم طريق الضلال، وأملى لهم أن يستجيبوا لأمر الله؛ فيؤمنوا كما آمن غيرهم بالقرآن الكريم ذلك النور الذي أنار للعالم طريق الصلاح والفلاح، المنقذ من الضلال الموصل لأبواب الجنان.

ثم يؤكد وحدانيته، ويحصر الألوهية في ذاته - سبحانه وتعالى- أن يكون له ولد وهو الغني عن الوالد والولد مالك السماوات والأرض، وما فيهن، وما عيسى - عليه السلام- وأمه إلاّ من مخلوقاته.

﴿... وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ...﴾ [النساء: ١٧١] وذلك لأوليائه، فلا يملك الخلق لأنفسهم ضراً ولا نفعاً بل بيده الخلق والأمر، ومن يتوكل عليه فهو المنتصر ومن يعصه فهو المنهزم.

قال سبحانه وتعالى في موضوع عيسى - عليه السلام- وأنه عبداً لله كباقي المخلوقات:﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[النساء: ١٧٢ - ١٧٣].

لن يتنزه ويأنف رسول الله عيسى ابن مريم - عليه السلام- أن يكون عبداً لله الخالق، ومثله الأنبياء والمؤمنون وحتى الملائكة المقربون، لن يستنكفوا عن عبادة الله.

الله الذي خلقهم، وفضلهم على غيرهم من مخلوقاته أكرمهم برفع ذكرهم بالخير. ثم تختم هذه الآية الكريمة بوعيد وتهديد من الله لمن يأنف تكبراً من

مخلوقاته عن عبادته.

وسيحشر الجميع للحساب يوم القيامة، وهذا أيضاً فيه من الوعيد والتهديد ما فيه، وأن المستنكفين المتكبرين عن عبادته وهو خالقهم وحافظهم سينالون الجزاء العظيم في نار وقودها الناس والحجارة.

وللمؤمنين الجنة التي عرّفها لهم – سبحانه وتعالى- ويزيدهم من إحسانه ما لا حدّ لقدره فوق أجرهم المعلوم المقرر عنده لهم ومن أوفى بعهده من الله.

=١٥=

لم يقتل ولم يُصلب عيسى ابن مريم - عليه السلام -

بل رفعه ربه إلى السماء حيّاً

من أسباب لعن أهل الكتاب قال الله - سبحانه وتعالى- في آيات تتعلق بهذا الأمر المشين: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٨].

الحديث في هذه الآيات متعلق بأهل الكتاب وأسباب لعنهم :

- **نقض العهود:** ومن هذه العهود العمل بما في التوراة ومساندة أنبياء الله، ومنهم رسول الله محمد ﷺ خاتم المرسلين.
- **كفرهم بآيات الله:** أي تحريف الكتب المرسلة من الله - سبحانه وتعالى- حسب الهوى، وتحليلها وتحريمها حسب المصلحة والكفر بمعجزات الرسل ومنهم عيسى ابن مريم - عليه السلام-.
- **وقتلهم الأنبياء بغير حق:** كزكريا ويحيى- عليهما السلام- وذلك لأنهم لم يسايروهم ويوافقوهم على طباعهم الشاذة، ونفوسهم المريضة.
- **ثم صدهم وإعراضهم عن كل ناصح؛** آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر مدعين أن تلك القلوب مغلقة؛ لا تسمع ولا تعي فكذبهم الله بقولهم وقال: ﴿...بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ...﴾ [النساء: ١٥٥].

وكثرة ذنوبهم وجرائمهم ومخالفاتهم لأوامر الله، فامتلأت خطايا وذنوب

حتى ختمها الله.

فسبب الطبع وهو الحرمان من الرحمة يرجع لامتلائها بالآثام والذنوب فحكم عليهم بالكفر المؤدي إلى النار واستثنت هذه الآية الكريمة بعض أفرادهما ممن كتب الله له النجاة فآمن وهم قلة حيث قال الله فيهم: ﴿....فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ...﴾ [النساء: ١٥٥].

- ثم استمروا في الكفر، وعمل المعاصي، وارتكاب الذنوب وزادت آثامهم، وعظمت جريمتهم، بافترائهم على مريم العذراء بأنها قد حملت بعيسى من الزنا وهذا أشد وأعظم البهتان، وتحدٍ سافرٍ لآيات الله البينة الظاهرة القائلة أن عيسى رسول الله وأمه طاهرة شريفة عذراء، ومولده معجزة، وخلقه بدون أب وكذلك كلامه في المهد صبياً
- ثم كذبهم وادعاؤهم بقتل رسول الله عيسى وهذه أيضاً فرية كبيرة تضاف إلى جرائمهم المتعددة فيرد عليهم رب العالمين بقوله: ﴿... وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ ...﴾ [النساء: ١٥٧].

وزيادة في إجرامهم وكفرهم واستهزائهم برسالة رسول الله عيسى ابن مريم -عليه السلام- وتبجحهم بقتله، يظهر ذلك من قولهم "رسول الله» وهم لا يؤمنون برسالته ولا بنبوته ولا بالإنجيل الذي أُرسل إليه، وما قولهم هذا إلا تكبراً وتبجحاً وطغياناً يضاف إلى منكراتهم وسوآتهم، عبر تاريخهم مع أنبيائهم.

فيرد عليهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- المطلع على السرائر العليم بمكرهم وحسدهم، الحكيم في إدارة ملكه: انهم لم يقتلوا رسول الله عيسى –عليه السلام– ولم يصلبوه، ويؤكد ذلك بقوله - سبحانه وتعالى-: ﴿... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ...﴾ [النساء: ١٥٧]. ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] .

وإنما قتلوا وصلبوا شبيهاً له، ولم يصل قتله وصلبه عندهم درجة اليقين الذي يعتد به في العقائد، بل يدور رأيهم في قتله في متاهة الشك والظن والخيال فمن هنا حسم القرآن الكريم قصة الصلب.

فقد اختلفوا اختلافاً كبيراً، يدل على عدم اليقين في قصة قتله وصلبه يظهر

من تناقض آرائهم فيه، وتناقض الروايات يدل على الشك، كل هذا الاختلاف: مقياس العقل البشري، والغلو في الرأي، وتصور الحدث.

ولم يتفق أهل زمانه والحاضرون والمشاهدون له على رأي واحد متواتر يطمئن له العقل، وتسكن إليه النفس فكيف بمن نُقلت لهم الأخبار عبر العصور الطويلة؟ وتشتت الرواة في المشرق والمغرب، مع اختلاف اللغات، وتناقض الترجمات، وملاحقة الحكام وأهل الأهواء لهم، والقتل والسبي والتشريد فازداد اختلافهم، وتباينت آراؤهم، فيما حدث له عليه السلام، إلى أن أغاث الله البشرية، وحملت سحب الرحمة لهم الخير والصدق واليقين بين طيات القرآن الكريم، ذلك الكتاب الذي تعهد رب العالمين بحفظه من التحريف والتغيير فجاء بالبيان الواضح، والرأيّ الصحيح، والخبر اليقين في أمره - عليه السلام.

فقد توفاه الله، ورفعه حياً إلى السماء، ينتظر الرجوع للأرض، ليملأها عدلاً وسلاماً والوفاة هنا كوفاة النائم حيث قال سبحانه وتعالى -: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزُّمَر: ٤٢] وهذا لا يعني الموت حسب مفهومه المعروف وهو فراق الحياة وخروج الروح من الجسد، والله هو القادر الحكيم المدبر لملكه، وعظيم سلطانه: ﴿...وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]. القوي القادر على الانتقام من أعدائه، الحكيم في تدبيره وقضائه، قال الله - سبحانه وتعالى- مخبراً عن شهادة عيسى ابن مريم - عليه السلام- على من صدقه وعلى من كذبه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩].

يخبر - سبحانه وتعالى- عن بعض المغيبات، كرجوع عيسى - عليه السلام- للأرض كهلاً، فينير الأرض بتطبيق شرع الله كما أنزل في كتاب الله القرآن الكريم، فيؤمن بنبوته بعض أهل الكتاب ممن سيعاصرونه، وذلك قبل موته المحقق كباقي البشر ويكون ذلك من علامات الساعة.

ثم يخبر - سبحانه وتعالى- الناس: أنه عليه السلام سيكون شاهداً على تكذيب من كذبه من بني إسرائيل، ومن قاوم دعوته، ومن فتن صحابته، ومن حاول قتله.

وعلى النصارى لغلوهم فيه حتى وصلوا إلى الشرك، وقولهم وادعائهم: أنه

إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة من الآلهة وكلها كفر وبهتان "اخرج سعيد ابن منصور والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يُلقي عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له اجلس ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال أنا، فقال: أنت ذاك فأُلقيّ عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء؛ قال: وجاء الطلب من اليهود فاخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، فهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة وكان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إإليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الاسلام طامساً حتى بعث الله محمداً، فأنزل الله عليه فآمنت طائفة من بني إسرائيل يعني الطائفة التي آمنت في زمن عيسى – وكفرت طائفة- يعني التي كفرت زمن عيسى - فأيدنا الذين آمنوا - في زمن عيسى باظهار محمد دينهم على دين الكافرين » [فتح القدير- ح١ ص٣٥٣].

=١٦=

النصارى تزعم أن عيسى ابن مريم - عليه السلام- أمرهم بعبادته

وردّ رب العالمين عليهم، قال الله - سبحانه وتعالى-: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠].

قيل في سبب نزول هذه الآيات الكريمة: أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرضي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟ فقال رسول الله ﷺ معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني، فأنزل الله في ذلك هذه الآية: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ... ﴾ [آل عمران: ٧٩] فتح القدير، ح١، ص٣٥٥.

وفي هذه الآية الكريمة أيضاً تعريض بمن ألّه الأنبياء والملائكة، وقد استبعدت الآية الكريمة هذا التفكير عن أنبياء الله المختارين لتبليغ شرع الله ورسالة التوحيد المقاومين للإلحاد في الأرض.

كما شرع - سبحانه وتعالى- وجوب وجود فئة من الأمة، تعلم الناس وتفقههم في أمور دينهم ومن صفات هؤلاء العلماء أنهم يثبتون على الحق، ويعملون بما أمر الله، فيكونون قدوة وقادة لعامة الأمة.

روى عن محمد رسول الله ﷺ أنه قال: "ما من مؤمن ذكر ولا أنثى ولا مملوك إلا ولله عز وجل عليه حق أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه وتلا هذه الآية: ﴿... وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

والربانيّ: هو المصلح المتفقه في الدين والموضح الشارع لكتاب الله، العامل بما أمر ا لله الناشر لدين الله بين الخلق.

قال محمد بن الحنفية "وهو ابن علي بن أبي طالب من غير فاطمة الزهراء» يوم مات ابن عباس: "اليوم مات ربانيّ هذه الأمة".

وفي هذه الآية الكريمة يظهر –أيضاً- وبصيغة التعجب والإنكار استبعاد أمر الأنبياء الناس لعبادتهم من دون الله فهل يعقل أن يأمر بالكفر والشرك من اختاره الله لمحاربة الشرك وان ينادي بالإيمان؟ ويضل عباد الله عن الصراط المستقيم، وهو المختار لنشر هذا الدين؟ وجميع هذه الآيات تأمر باتباع العلم الصحيح ونشر تعليمه للخلق، والتحذير من الانحراف عن الخط المستقيم الذي أمر الله – سبحانه وتعالى- باتباعه.

أخذ الميثاق من النبيين للتنا صر وعدم الاختلاف والإيمان برسالة خاتم النبيين محمد ﷺ قال سبحانه وتعالى:﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ - ٨٢].

القاسم المشترك بين دعوة الأنبياء - عليهم السلام- هو الإيمان ومنه الإيمان برسل الله بدون تفريق وهم جميعاً حزب واحد، وصف واحد وأمة واحدة ضد الكفر والإلحاد متناصرين متوافقين عبيداً لله.

فيجب على المؤمنين الموحدين السير على نفس المبدأ والمنهاج، فالمؤمن على عهد رسول الله نوح – عليه السلام- يسير على نفس المنهج الذي يسير عليه المؤمن في عهد محمد ﷺ.

ومن آمن برسالة الإسلام، فهو مؤمن بما سبقها بدون تفريق بين رسل الله قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلو وُجد ايّ نبيّ في عهد رسول الله محمد ﷺ، فيجب عليه - حسب هذا العهد- إتباع رسالة الإسلام، وهذا هو العهد الذي قطعه أنبياء الله على أنفسهم وأشهدوا الله عليه، وذلك بعدم الاختلاف، ثم نصرة بعضهم بعضاً ووقوف أممهم صفاً واحداً ضد الكفر، وعدم موالاة الكفار ضد المؤمنين.

كل منهم يشهد على نفسه وعلى أتباعه من المؤمنين، وقد سمي هذا الأمر بالإصر لثقله، ومسؤولية حامله، فكل أصحاب الديانات السماوية مطالبون بالإسلام ديناً بعد بعثة محمد رسولاً لله ولا يشفع لهم عذرهم أنهم يتبعون ما سبقه من الديانات لأن أنبياءهم قد تعهدوا بالسير على نهج الإسلام، وأُمروا أن يتبعوا رسول الله محمد ﷺ وعلى هذا عاهدوا الله فواجب أممهم تنفيذ هذا العهد ومن لم ينصر ويتبع دين الإسلام منهم فهو فاسق خارج عن الدين.

ونخص بالذكر أتباع الأنبياء لأن الأنبياء أنفسهم لا يعقل خروجهم عن الدين الحق، وهم المصطفون الأخيار اختارهم المطلع على القلوب، العالم بالنفوس:﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [المُلك: ١٤].

فلا يخرجون عن الخط الذي رُسم لهم، وأُمروا بإتباعه، ولا فرق بين عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام جميعاً، فجميعهم جاهدوا في الله حق الجهاد، لتبليغ رسالته والصبر على الأذى والثبات على الدين الحق.

المنافسة بين اليهود والنصارى في الشرك والغلو وطاعة رجال الدين عندهم واتخاذهم أرباباً من دون الله قال - سبحانه وتعالى- في النهي عن التقليد الأعمى، وعن السير وراء سراب الكفر، وهو النفس، والشيطان الرجيم:﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣١].

الكلام عادة بالفم ولكن ذكر الفم هنا كان لربطه بالكذب والبهتان والقول بالفم هنا يظهر منه عدم التبصر فيما يقال؛ بل هو كلام عابر لم يتصف بعمق التفكير، وذلك لتزينه بميزان الحق، والفهم الحقيقي وتظهر المنافسة والعداء بين اليهود والنصارى في تأليه أنبيائهم غلوّاً وبهتاناً، وفي مشابهة أهل الكفر ممن سبقهم ومتابعتهم في ضلالهم، وسير كل جيل على خطى ما سبقه ن وتقليده بدون تمحيص.

فعندما قالت النصارى عيسى ابن الله، تبعهم بعض اليهود مضاهاات وحسداً ومكراً وكيداً فقالوا: عزير ابن الله وقالت بعض العرب الملائكة هن بنات الله وكل هذا افتراء ومنافسة في الكذب وتزيين من الشيطان الرجيم.

وقد أوضح القرآن الكريم قصة العزير وموته ثم إحياءه - بإذن الله- وقد شاهد عظام حماره الذي كان قد أماته الله، ثم أحياه، وشاهد اللحم والعصب والجلد كيف كونها الله البارئ الخالق على عظام هذا الحمار وكل هذا من نوع الإعجاز ليؤمن من كفر، ويزداد المؤمن إيماناً.

وفي هذه الآيات تحذير وموعظة لأمة محمد ﷺ حتى لا تقع فيما وقع فيه سلفهم، كما أن القائلين من اليهود والنصارى هذا القول أمام رسول الله محمد ﷺ في عهده، مضاهاة للمشركين السابقين لهم ولأجدادهم ثم هي توبيخ لأهل الكتاب، وإبطال لمعتقدهم هذا، وتكذيب لهم، وفضح لعقيدتهم الفاسدة؛ بادعائهم أن لله شركاء وأبناء، ممن لا يستسيغه العقل السليم.

وقد دعا عليهم ربهم بالهلاك واللعنة، وتظهر صيغة التعجب من قولهم هذا، وذلك لأنهم قد انصرفوا عن الحق للباطل بافترائهم أن لله ولداً.

روى الترمذي عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «ما هذا يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن».

وسمعته يقرأ في سورة "براءة": ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ...﴾ [التوبة: ٣١].

ثم قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا له شيئاً استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه».

واتخاذهم هو تقليدهم، والأخذ برأيهم، وترك كتاب الله فمن يُقدّم ويُقدّر رأيّ البشر على حكم الله، وشرع الله فقد عبدهم وأطاعهم من دون الله، وتنكر للخالق بطاعة المخلوق الفاسق وغطى الحقيقة، وأظهر الباطل، واتبع هواه فغوى.

والعامة مشهورة بالتقليد الأعمى، والثقة بهؤلاء الأحبار والرهبان، فكانت العامة تتبع أقوالهم بدون تمحيص ولا تبصر، وتسير كالريشة في مهب الريح.

وفي هذه الآية الكريمة من التحذير والتنبيه لأمة محمد ﷺ من الوقوع في شباك الشيطان وما زينه لغيرهم فضلوا وأضلوا.

وفي قوله سبحانه وتعالى- «والمسيح ابن مريم» أي اتخذوه رباً معبوداً رغم أنه أمرهم بعبادة الله الواحد الأحد.

كما أن في هذه الآية تلميح بأن اليهود لم يتخذوا عزيزاً رباً كما فعل النصارى إلى الآن بالنسبة لعيسى - عليه السلام- إذ اتخذوه رباً من دون الله.

«سبحانه عما يشركون» أي تنزيها له عن قولهم وشركهم وتوجيه العبادة لغير المعبود الحق، إذن قول اليهود في العزير كان مضاهاة للنصارى من فئة من اليهود فقط.

قال الله –سبحانه وتعالى- يستهزأ بأسلوب المشركين الذين يريدون أن يطفئوا نور الإسلام الذي أضاء الأرض بأفواههم حيث قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] وقد بينت هذه الآية الكريمة مقدار ضعفهم وجهلهم بأنهم يريدون طمس الإسلام ونور الحق بأفواههم، وهذا اعظم أنواع البلاغة وأشد أنواع الاستهزاء بهم، وبأسلوبهم الحقير.

وفيه رفع قيمة الإسلام ودعوته، وأنه يصمد أمام العواصف الهائجة، والأمواج العاتية، والأعاصير الشديدة فكيف لا يصمد أمام أفواه هؤلاء الجهلة الحاقدين.

ثم فيه البشرى العظيمة بأن دين الإسلام سيعم المعمورة رغم أنف الكافرين والفاسقين والظالمين يمتدح رب العالمين من آمن برسالة الإسلام واتبع محمداً رسول الله ﷺ الذي بشرت به كتب أهل الكتاب فهؤلاء المؤمنون حقاً من أهل الكتاب، استثناهم من الضلال فامتدحهم بقوله - سبحانه وتعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

يمتدح رب العالمين من يتبع رسوله الكريم من أهل الكتاب وقد قُدمت كلمة «رسول» على كلمة "نبيّ" في هذه الآية الكريمة رغم أن كلمة النبيّ أشمل في المعنى اهتماما بمعنى الرسالة.

والأميّ: هو الذي لم يتعلم القراءة والكتابة ولا تعني عدم الثقافة، فللعرب

حضارتهم الخاصة بهم، ومعارفهم وفصاحتهم وقوة بيانهم التي تظهر في أشعارهم وخطبهم التي اشتهروا بها.

ونفهم من كلمة «الأميّ» في هذه الآية أن هذا الرسول سيكون من العرب؛ حيث كانوا كجزيرتهم في علم الكتابة والقراءة، لظروف جغرافية، وقلة المدن والتجمعات السكانية، وبُعد المسافات، وقلة المياه والأنهر، إذا ما قورنوا بالبلاد المحيطة بهم، بلاد الحضارات العربية العريقة العظيمة كبلاد الشام ومصر والعراق.

وقد كشفت هذه الآية الكريمة سريرة أهل الكتاب وفضح ما أخفوه من صفات رسول الله محمد ﷺ، التي ائتمنهم الله عليها؛ ليظهروها في حين نُصرة هذا الرسول، والجهاد تحت راية دينه الجديد، ومع أمته الماجدة، الناشرة والناصرة لهذا الدين.

ولكنهم ناصبوا أمة الإسلام العداء، تكبراً وكيداً وحسداً وغيرة لانتقال الرسالة من فخذ إسحاق ابن إبراهيم - عليهما السلام- وكأن الخير والرحمة حكراً عليهم، وخاصاً بهم من دون الخلق.

ومن هذه الصفات التي أخفوها: ما رواه البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُماً، وقلوباً غُلفاً».

وقد بُينت أبرز صفات الرسول محمد ﷺ، وصفات أتباعه، تلك المدونة في التوراة والإنجيل، الصحيحين، لا ما لعبت فيه أقلام الأحبار والرهبان تنفيذاً لرغبات الحكام وأهواء الملأ من بني إسرائيل.

وما أعظمها شهادة من رب العالمين مُرسل الكتب، وباعث الرُسل فكان الأمر الطبيعي والموقف العادل، أن يسلم أهل الكتاب قبل المشركين من العرب ومن غيرهم تكريماً لمن كرّمه الله، وإطاعة لأمر الله، ووفاء لعهد الله فذكر صفات محمد ﷺ في كتبهم، تجعلهم، لو كانوا مؤمنين حقاً بكتبهم هذه أول من يستقبل رسول الله، وأول المؤمنين بدين الإسلام.

ومن هذه الصفات التي كانت مدونة في كتبهم: أنه «يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر» والمعروف: هو مكارم الأخلاق، وصلة الرحم والرحمة وحب الخير، والمنكر: هو عكس هذه الصفات «ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث».

الطيبات: ما حلله الشرع ومن الطيبات التي كانت محرمة عليهم - بسبب ذنوبهم- وأحلها الإسلام رحمة وتيسيراً الشحوم.

وأما الخبائث: فهي ما حرّمه الشرع ومن تلك الخبائث التي حُرّمت عليهم لحم الخنزير، ومن المشروبات الخمور.

ومما وُضع عنهم وكان مثقلهم مجالسة ومؤاكلت الحائض، وأكل الغنائم، ومن الأغلال التي كانت عليهم، وحفظها الإسلام تيسيراً ورحمة بهم: جعل الدية تدخل في نظام القصاص، والتوبة بدون قتل أنفسهم.

الأصر ولأغلال: هي التكاليف ولأحكام الشاقّة التي كانوا مطوقين بها؛ فحفظها رب العالمين عنهم بإتباعهم تعاليم الإسلام.

وقد امتدحت هذه الآية الكريمة من آمن منهم واعتبرتهم هم المفلحون وقد كانوا كثيراً عبر التاريخ - ولكن كأفراد- لتكريمهم رسول الله، ومناصرته والوقوف في صف المؤمنين، ومساندة دين الإسلام والجهاد في سبيل الله، وموالاة الجماعة المسلمة، وتطبيق شرع الله الذي ينير للمسلم طريق الخير والفلاح.

ومن الأدلة على معرفتهم بصفات رسول الله ما قالته أم المؤمنين صفية بنت حييّ بن أخطب: «كنت أحبّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلاّ أخذاني دونه، قالت فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حُييّ بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب، مُغلّسين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس قالت: فأتيا كالّين كسلا نين ساقطين يمشيان الهوينا قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فو الله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيي بن أخطب، أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال نعم؛ قال: فما في نفسك منه قال: عداوته والله ما بقيت».

هذه شهادة أم المؤمنين صفية -رضي الله عنها- على أقرب الناس إلها، أبوها وعمها وفي هذه القصة يتمثل الحسد والحقد والكذب في نفس زعيميّ يهود المدينة المنورة؛ مع علمهما بالكتب السماوية، والبشرى برسول الله محمد ﷺ، وبنعته، وهما عمدة ومعقد الرأيّ عند يهود المدينة في تلك الفترة يقسم حييّ هذا وهو عالم وفقيه وكبير يهود أن محمداً هو رسول الله المنتظر وذلك بقوله لأخيه

أبي ياسر، عندما سأله:«أهو هو؟» فقال: «نعم والله»؛ ومع هذا ساعد ابن أبيّ المنافق الذي كان من أكبر المؤلبين على جماعة المسلمين، وعلى رسول الله حيث رجع بثلث الجيش الإسلامي صبيحة معركة أُحد، كما جامل حييّ هذا الملأ من قريش والأحزاب على المسلمين حتى ضربوا المسلمين عن قوس واحدة، فحاصروا المدينة، ذلك الحصار المعروف الشديد المرعب المخيف ولكن الله - سبحانه وتعالى- هو سند المؤمنين وكما قال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨] فيدبر أمر رحيل الأحزاب وترك حصار المدينة المنورة، يقسم حييّ هذا بأن محمداً هو الرسول المنتظر الذي بشرت به كتب النصارى واليهود ومع هذا يأبى الدخول في الإسلام، كما دخل غيره من كبار اليهود كابن سلام «حبر يهود المدينة وعالمهم» ومُخيريق «الذي ناصر المسلمين في معركة أُحد وأسلم واستشهد» وكان قد أوصى بماله وأملاكه لرسول الله محمد ﷺ بعد موته.

تمسك كفار أهل الكتاب والمشركين بمعتقداتهم، وعكفوا عليها واستمروا في كفرهم وضلالهم حتى جاء القرآن بالحجج الظاهرة، والبينات الواضحة فاهتدى من اهتدى، وعاند من عاند.

رغم علمهم -كما ذكرت لهم كتبهم- ببعث رسول بشرت رسلهم، فلما بعث وبصفته ونعته، والقوم الذين سيبعث فيهم، والأرض التي سيظهر فيها، كفروا به وجحدوه وأنكروه حسداً وتكبراً وزيغاً عن الحق، واتباعاً لشيطان مارد، فضلو سواء السبيل قال الله - سبحانه وتعالى-: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

فقد ذم في هذه الآية الكريمة بل ولعن من عرف الحق ثم كفر به من أهل الكتاب.

كما امتدح من عرف منهم الحق فاتبعه حتى قال:- سبحانه وتعالى- في وصفهم: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ ...﴾ [المائدة: ٨٣].

والحق الذي عرفه من آمن من أهل الحبشة ورهبانها هو رسالة الإسلام والرسول الكريم ﷺ الذي بشرت به كتبهم.

قال - سبحانه وتعالى- يصف موقف البشر من رسالة الإسلام سواء كانوا

مبشرين أو من أهل الكتاب: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ [البيّنة: ١ - ٣].

فسواء موقف أهل الكتاب العدائي لرسالة الإسلام والرسول الكريم ﷺ أو موقف مشركي العرب الذين كانو يسمونه الأمين قبل مبعثه ﷺ فانقلب الحال حيث أُرسل إليه، فعادوه وحاربوه تكبراً وحسداً من عند أنفسهم.

والبينة: هي رسالة الإسلام ورسوله الكريم، فآية «رسول من الله» هي البينة، وهي السراج المنير، التي أنارت للمؤمنين طريق الخير والفلاح، فسلوكها.

وقد وُصفت صحف القرآن الكريم بالطهارة والاستقامة والاعتدال، قيمتها عالية عظيمة منزهة عن الزور والضلال، مُحكمة الآيات، معجزة النظم من طبقها وسار عليها أرضى ربه، واستقام أمره فربح الدارين.

كما امتدح - سبحانه وتعالى- الفقهاء والعلماء الذين يبينون ويشرحون ويوضحون للناس ما خفي وغمض في آيات الله في هذا الكتاب الطاهر الكريم، ويستنبطون الأحكام الشرعية، لتطبيق شرع الله في الحياة.

فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال:«قال رسول الله ﷺ لأبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك» لم يكن الذين كفروا قال: وسماني لك؟ قال نعم، فبكى» وأبيّ هذا كان من كبار الصحابة وقد روي عنه كثير من أحاديث الرسول، كما كان من المفسرين لبعض آيات القرآن الكريم وقد امتاز برواية الحديث، وأسباب النزول.

قال الله - سبحانه وتعالى- مبيناً وفاضحاً موقف أهل الكتاب الذين كانوا ينقلون البشرى ببعث نبي يكون خاتم النبيين، سيناصرونه ويتبعونه، عندما يُبعث له ونزل القرآن الكريم فاختلفوا فيه، وما آمن منهم به إلاّ قليل قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيّنة: ٤ - ٥].

وما ظهر عداء أهل الكتاب، وتفرق رأيهم، ووضح كفرهم، وانقسمت كلمتهم في رسالة نبي آخر الزمان، خاتم النبيين، وخاتمة الرسالات، إلاّ بعد بعثه، ونزول القرآن الكريم، وما فيه من إعجاز، وما كشف من أسرار التاريخ الماضي، وما حواه من علم الغيب المستقبل وأخذ نوره يضيء المعمورة، وأخذت أقدام المؤمنين تتعارك على أبواب مسجد رسول الله في عاصمة الدولة الاسلامية،

فتحركت براكين الحقد في صدور كفار أهل الكتاب، وظهرت مقاومتهم مع المشركين حزباً واحداً، وجبهة واحدة ضد رسول الله والمؤمنين، ووصل الأمر للحرب والقتال لطمس معالم هذا الدين القويم الذي أخبرت به كتب أهل الكتاب، مبشرة بقدوم رسول العدل والتوحيد خاتم النبيين.

رغم أن أهل الكتاب كانوا يقولون سنبقى عاكفين على ما بين أيدينا من علم الكتاب، وعلم الدين لا نفارقه حتى يبعث الله النبيّ المنتظر، فيأتي بالرأيّ السديد، والعقيدة الواضحة، والخط المستقيم، فنتبعه ونستنير بنوره ونهتدي بهديه، ونناصره، ونجاهد تحت رايته.

وما أمرهم الإسلام، إلاّ بما أمرتهم به كتبهم - قبل التحريف والتغيير- وهو توحيد الله والإخلاص له في النية والعبادة والعمل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لا نلتفت ولا نوقر غيره، معرضين عن الكفر والكفار، مناصرين للمؤمنين، في أي مكان، وفي كل زمان ونقيم الصلاة، كما فرضها الله، ونؤتي الزكاة، فندفعها لمستحقيها.

فقد أُمر أهل الكتاب بالصلاة والزكاة، كما أُمرت أمة الإسلام بهما، مع جملة الفروض الأخرى، وهذا هو الدين الصحيح المستقيم الذي أُمرت به الأمم الموحدة، وخُتمت بهذا الدين الحنيف.

ثم يخبر - سبحانه وتعالى- عن شرالخلق فيقول:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البيّنة: ٦].

وفي هذه الآية الكريمة تقريع وتوبيخ لمن أعلن العداء للإسلام بعد أن أنتظره، وبشر به واعتز برسوله قبل أن يُبعث، وعندما أُرسل إليه قلب له ظهر المجن وأظهر العداء والمقاومة والدعاية المغرضة للإسلام ورسوله وأمته فالويل! كل الويل! لأهل الحسد والكيد من مشهد يوم عظيم، فهؤلاء هم شر الخليقة، لجمعهم الفسوق، والتكبر والحسد مع الكفر فقد بينت هذه الآية جزاء من هم شر البرية.

ثم يبين - سبحانه وتعالى- من هم خير البرية فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البيّنة: ٧] فخير الخلق من جمع مع أركان الإيمان أركان الإسلام، مع الإيمان العمل الصالح، جعل رضا الله نُصب عينيه، ثم بين - سبحانه وتعالى- ثوابهم يوم القيامة فتحديد الأجرة، يساعد على الإخلاص في العمل، والثبات الدائم على عمل الصالحات. قال -سبحانه وتعالى-

: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة: ٨] خالدين في هذا النعيم المقيم الدائم. أطاعوا الله فرضي عنهم، ورضوا بما وهبهم من الثواب والرحمة والكرامة، وهذا الخير والرحمة لمن آمن وعمل، وخاف الله في دنياه، في السر والعلن، فقام بما فُرض عليه واجتنب ما نهى الله عنه.

أخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كما كانت هيعة استوى عليه ألا أخبركم بشّر البرية؟ قالوا: بلى، قال: الذي يسأل بالله ولا يُعطي به».

=١٧=

تكريم مريم العذراء لإيمانها وطاعتها وعفتها

قال الله - سبحانه وتعالى- في تكريم مريم البتول العذراء: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[التحريم: ١٢].

كما واذكر يا محمد مريم ابنة عمران التي كانت مثال الطاعة والطهر والعفة، العابدة الزاهدة القانتة، صاحبة الشرف الرفيع، والأرومة الكريمة، ويكفي شرفاً أنها ابنة عمران.

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ صانته عن مقارفة الفواحش، وهذه الشهادة من رب العالمين، المطلع على السر وأخفى، كافية، بوصفها بالشريفة الطاهرة العفيفة، ولتكون مع خير نساء الأرض.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ قد أمر – سبحانه وتعالى- جبريل عليه السلام- بأن ينفخ في جيب درعها؛ فحملت برسول الله عيسى - عليه السلام- والله يفعل ما يريد، والجيب كما قال - سبحانه وتعالى-: ﴿...وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ...﴾ [النور: ٣١] هي فتحة الصدر من أعلى.

وكانت مثال المؤمنة التي صدّقت بما أوحى الله به لها عن طريق جبريل – عليه السلام- وبكتب الله، وكانت من القوم المطيعين لله.

وقد جمع لها ربنا كرامة الدنيا والآخرة، واختارها أماً لنبي الله عيسى– عليه السلام- رغم ما اشتهر به قومها من كيد وعناد وفسوق وكفر.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاّ آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وعن معاذ بن جبل –رضي الله عنه- أن النبيّ ﷺ قال لخديجة وهي تجود

بنفسها: «أتكرهين ما قد نزل بك؟ ولقد جعل الله في الكره خيراً، فإذا قدمت على ضرَّاتك فأقرئيهن مني السلام: مريم بنت عمران، وآسية بنت مُزحم، وحكيمة بنت عمران – أخت موسى بن عمران» فقالت: بالرفاه والبنين يا رسول الله.

والآية الكريمة هي رد على من اتهمها من بني اسرائيل بالفاحشة والرذيلة، وقولهم في عيسى رسول الله – عليه السلام- أنه ابن زنا، وساحر فلم يؤمنوا برسالته ولا بنبوته ولا بالإنجيل كتاباً من عند الله.

=١٨=

آية العزّ

قال رسول الله محمد ﷺ: آية العزّ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ...﴾ [الإسراء: ١١١] "أحمد الطبراني"يخاطب ربّ العزة رسوله الكريم: أن يحمده لعزته وعدم حاجته لولد يرثه، وفيها رد بليغ على المشركين جميعهم: ففيها رد على اليهود، حيث قالوا: عزير بن الله وعلى النصارى حيث قالوا: المسيح بن الله، وعلى مشركي العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله وزعمت الثنوية فقالوا: بتعدد الآلهة، وذلك ليساعدوه في إدارة ملكه فردّ رب العزة على هؤلاء بقوله – سبحانه وتعالى-: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ...﴾ [الأنبياء: ٢٢] فالله هو المدير الحافظ للسماوات والأرض وما فيهن، صاحب القدرة المطلقة الخاصة به ولم يوالي قويّا ليحميه، ويسنده ويدفع الأذى عنه لأنه مُستغنٍ بنفسه وهذا ردٌّ على المجوس والصابئة الذين قالوا: لولا أولياء الله لذلّ.

ولا لحليف يسنده وينصره ويقويه، لأنه لم يحتج لأن ينتصر بغيره، وهو القادر العزيز، فهو – تعالى عن التشبيه- منزه عن هذ الصفات الوضيعة جميعها، وذلك لأنه صاحب القدرة المطلقة، والأسماء الحسنى الخاصة به –سبحانه وتعالى- ويُقال: أبلغ لفظة للعرب في التعظيم والإجلال: «الله أكبر» وقد استعملتها جيوش المسلمين في مواقف العزة، فأثارت فيهم نخوة الإسلام، حتى قُرنت بالنصر والعزة والعظمة واستعملها الفرد المظلوم، فقويّ بها العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والدعاء، ينبغي أن يعترف بالتقصير في العبادة والدعاء، أمام واهب الحياة، الهادي سواء السبيل.

أخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن أبي أمية قال: «كان رسول الله ﷺ يُعلّم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرّات: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١١١] صدق الله العظيم والعزة لله.

قال الله - سبحانه وتعالى- موبخاً المشركين الذين طلبوا العزة من المخلوق

بدل الخالق: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢].

وبعد أن بينت الآيات مصير ما عُبد من دون الله من أصنام ظن عُبّادها أنها ستشفع لهم عند الله يوم القيامة، وأنها ستنصرهم في الدنيا والآخرة وأن مصير هؤلاء الكفار إلى النار لشركهم، ولن تُغني عنهم أصنامهم من الله شيء.

بين - سبحانه وتعالى- نوعاً آخر من الشرك وهو ادعاء بعض أهل الكتاب، بأن لله ولداً حيث قال - سبحانه وتعالى-:﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

فهذا الادعاء هو داهية عظيمة، وأمر فظيع، ولعظمه تكاد السماوات تتشقق، والأرض تتكسر، والجبال تتردم كل هذا الغضب والاضطراب من مخلوقات الله العظيمة هو رد فعل لادعائهم أن لله ولداً فقد استنكرت هذا الأمر وتلك الفرية حتى الجمادات، والمخلوقات المشاهد منها والخفيّ.

فقد عم الغضب والإستنكار والتعجب جميع المخلوقات وذلك لعظم هذا الادعاء وتلك الفرية، على خلق الكون الواجب الوجود، الذي بيده الخلق والأمر.

وذلك لأن الولد معناه النقص والحاجة، ومعناه تنازل الرب عن أسمائه الحسنى، التي لا يشاركه فيها مخلوق أيّ كان.

وقد بينت هذه الآيات الكريمة الطاعة الكاملة، والحضور يوم الحساب لجميع الخلق وكل يقرّ لله بالعبودية، خاضع ذليل كما قال تعالى:﴿...وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ...﴾ [النمل: ٨٧] أي صاغرين أذلاء فكيف للذليل العبد المخلوق المحتاج أن يكون ولداً لله فقد أحصى مخلوقاته، فلا يخفى عليه منها أحد.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك: ١٤] ثم كنوع من التهديد والوعيد أن الجميع يأتي يوم القيامة فردا، فلا أهل ولا عشيرة ولا حرس ولا شُرط، وفي هذه الآيات الكريمة ما يوحي بمقدار غضب الله، ومخلوقاته على من ادعى أن للرحمن ولدا؛ وجاءت هذه الآيات باسلوب تهديد ووعيد وتعجب، مما قاله هذا المخلوق الضعيف المحتاج عن خالق الخلق، العزيز الحكيم القادر الخالق.

أقول كأن هذه الآيات القنابل تتساقط على الأسماع، فتثور ثائرة المؤمنين، الموحدين في الأرض، يدفعون بكل البراهين والحجج هذا الادعاء الكاذب، والافتراء الذي لا تطيقه الأسماع، والمنطق الذي لا يتحمله عقل مستنير.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تبارك وتعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته وأما ما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا ولم يكن له كفواً أحد».

قال الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر نوحاً وإبراهيم –عليهما السلام- وأن النبوة محصورة في ذريتهما: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ...﴾ [الحديد: ٢٧] فأتبعنا على آثارهما برسل معهم البينات الواضحات، وتسندهم المعجزات القوية، ومن هؤلاء الرسل عيسى ابن مريم - عليه السلام- ومعه الإنجيل فيه تيسير ورحمة لبني إسرائيل.

ثم وصف - سبحانه وتعالى- بعض أخلاق وسلوك من اتبع عيسى - عليه السلام- من الحواريين وغيرهم في مناهجه وشرعه فقال - سبحانه وتعالى-: ﴿... وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ...﴾ [الحديد: ٢٧] .

الرحمة: هي الشفقة وأما **الرأفة:** فهي اللين، وأشد الرحمة وهذا الإطراء والمدح لمن آمن معه - عليه السلام- وثبت على عقيدته، رغم العذاب والإضطهاد والكيد من الحكام وزبانيتهم، وأصحاب الأهواء من بني إسرائيل والمنافقين والفُساق والظلمة من حكام الروم وغيرهم.

أخرج النسائي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال:«كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة ولإنجيل

فقيل لملوكهم ما نجد شيئاً أشدّ من شتم يشتمنا هؤلاء أنهم يقرأون:﴿...وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿...وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿...وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

مع ما يعيبوننا به من أعمالنا في قرائتهم، فادعوهم فليقرأوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنا، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو ليتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلاّ ما بدلوا منهما، فقالوا ما تريدون إلى ذلك؟ دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم، وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونأكل مما تأكل منه الوحوش ونشرب مما تشرب، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً ونحتفر الآبار ونحرث البقول فلا نرد عليكم ولا نمرّ بكم، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك، فأنزل الله: ﴿...وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ...﴾ [الحديد: ٢٧] وقال آخرون ممن تعبد من أهل الشرك وفنيّ من فنيّ منهم قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث الله النبي ﷺ ولم يبق منهم إلاّ القليل إنحط صاحب الصومعة من صومعته وجاء السياح من سياحته، وصاحب الدير من ديره، فآمنوا به وصدقوه، فقال الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ...﴾[الحديد: ٢٨] أجرين بإيمانهم بعيسى والتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد وتصديقهم: ﴿... وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ...﴾ [الحديد: ٢٨] .

القرآن واتباعهم النبيّ ﷺ ولما قاسته الفئة المؤمنة من عذاب ومطاردة من الحكام والظلاّم والفجرة لجأت إلى الصحراء والجبال والكهوف هرباً بدينها من الفتن -كأصحاب الكهف الذين ذُكروا في القرآن- تاركين الأهل والمال والوطن والجيرة.

فرأى بعضهم سلوك نظام سموه الرهبنة، ابتدعوه من عندهم ليساعدهم على حياة التردد والانقطاع للعبادة والزهد فتركوا الزواج والعمل لإرضاء الله حسب زعمهم، وهذا ما زينته لهم نفوسهم قال - سبحانه وتعالى-: ﴿... إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ...﴾ [الحديد: ٢٧] قال الله سبحانه وتعالى مبيناً بكل وضوح، أن نظام الرهبنة، لم يشرعها عزّ وجلّ ولكن هؤلاء النصارى اخترعوها من أنفسهم: ﴿... وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ...﴾ [الحديد: ٢٧].

وما استطاعوا أنه يتقيدوا بنظامها الذي فرضوه على أنفسهم، وبإرادتهم، واجتهادهم، فأكلوا الحرام واستباحوا الأعراض، فأضروا الموحدين بسلوكهم هذا المخالف لطبيعة البشر، ودنسوا الدين، ونفرّوا الناس منه، وذلك أن الناس ظنوا أن جميع المؤمنين هم على شاكلة هؤلاء الرهبان الفاسدين المفسدين فتنكروا للدين ظانين أن الدين هو الذي يأمر بالفساد، وعدم إنضباط النفس وأن نظام الرهبنة هو من الله، مما أثار حفظية الكتاب والمفكرين والعلماء، فثاروا على الدين ورجال الدين، وأخذوا السيادة والسلطان منهم، فظهرت الأحكام الوضعية الحالية، والعلمانية والشيوعية، واحتقر الدين وأهله.

قال الله - سبحانه وتعالى- يفضحهم ويكشف سلوكهم المشين: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ ﴾ [التوبة: ٣٤].

فقد ابتدعها الصالحون المتعبدون في ظرف معين وأفسدها المتأخرون النفعيّون المقلدون، وقد بين رسول الله محمد ﷺ حكم الإسلام في الرهبنة ونظامها فقال: "إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» أخرجه أحمد والحطيم الترمذي وأبو يعلى والبيهقي عن انس.

وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبي أمامة الباهلي قال: للرجل الذي قال له: يا نبيّ الله، إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى عن الدنيا فقال النبي ﷺ: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكن بعثت بالحنفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله

خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من صلاته ستين سنة».

وكان جوابه - ﷺ- فيمن حدثتهم أنفسهم ببدعة صوم الدهر، أو قيام الليل كله، أو ترك الزواج للتفرغ للعبادة فقد صح عنه أنه قال في ذلك: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساء فمن راغب عن سنتي فليس مني» رواه مسلم.

فمن هنا لا أساس لفصل الدين عن الحياة في الإسلام، وذلك لأن فلسفة الإسلام هي مزج المادة بالروح، ولا مُصطلح رجال دين ورجال دنيا، فلا يُعفى أيّ مسلم من فرض الجهاد، وليست العمامة عُذراً شرعيّاً يعتذر بها المسلم عن الجهاد في سبيل الله.

فالجميع أمام الحكم الشرعي سواسية، والكل مطالب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكل مُطالب بالجهاد في سبيل الله سواء كان الجهاد لتحطيم الحواجز المادية التي تمنع وصول الإسلام للبشر أو دفع العدو عن أرض الإسلام أو تحريرها إن دخلها العدو، ولا عذر لقادر على القتال، وكذلك إذا نادى منادي خليفة المسلمين للجهاد، فالجميع مطالب بالنفير.

ويخبر - سبحانه وتعالى- عمن أخذ بالعزيمة، وثبت على دينه، رغم العذاب والتشريد والقتل، فبشرهم بالأجر الجزيل، حيث قال:﴿...فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

ولكن الكثرة من هؤلاء كانت فاسقة، خارجة عن طاعة الله، استغلت الدين للمصلحة الآنية، مما نفّر الناس من الدين ورجاله وأحباره ورهبانه قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ...﴾ [الحديد: ٢٨] والخطاب في هذه الآية الكريمة موجه لمن آمن من اليهود والنصارى بكتب الله وبرسله فيأمرهم - سبحانه وتعالى- أن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ، ليكون أجرهم ضعفين والكفل هو النصيب والحظ ومن أوفى بعهده من الله، ويكون هذا الأجر المضاعف لكونهم آمنوا بالكتب السابقة وبالرسل وبرسالة محمد ﷺ وبالقرآن المهيمن على الكتب.

كما ويخبرهم بتمام رحمته عليهم بأن يهديهم سبيل الرشاد حيث قال - سبحانه وتعالى-: ﴿...وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ...﴾ [الحديد: ٢٨] ويبشرهم - سبحانه وتعالى- ببشرى رحمة وخير لهم، أفضل من الدنيا وما فيها، حيث يقول

- سبحانه وتعالى لهم-: ﴿... يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ...﴾ [الحديد: ١٢] ويبشرهم - سبحانه وتعالى- ببشرى رحمة وخير لهم، أفضل من الدنيا وما فيها، حيث يقول

- سبحانه وتعالى لهم -: ﴿...وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] فستر الذنوب، والصفح من صاحب المغفرة الحقيقي، هو أعظم ما يناله العبد من جائزة توصله لأبواب الجنان.

وكل هذا التكريم لحملة القرآن الكريم ولأمة الإسلام الماجدة، كرم ورحمة من الله، فالفضل بيده - سبحانه وتعالى- لا بيد أهل الكتاب أو غيرهم يُكرم من يشاء ويحرم من يشاء.

قال - سبحانه وتعالى- مبيناً وموضحاً، وبكل تفصيل أن الخير بيده يرزق من يشاء بغير حساب: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] فالرسالات ليست حكر لأهل الكتاب بل هي خير يعطيها رب العزة لمن يشاء من خلقه:﴿... وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال سبحانه وتعالى:﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المُلك: ١].

والآية الكريمة هي ردّ على أهل الكتاب في إدعائهم أن الله قد خصهم من دون الخلق بالرسالات والرُسل، فقد بين لهم أنه أعطى أمة الإسلام أفضل مما أعطاهم،ورفع ذكرهم، وذكر نبيّهم.

وينتظر منهم الشكر على هذا الكرم وتلك الرحمة والفضل. اللهم اجعلنا من الشاكرين لنعمتك، العاملين بما أمرت، الناصرين لدينك. وقوله - سبحانه وتعالى-:﴿... وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، وهذا الفضل الذي وصف بأنه "عظيم» يناله من آمن بالله وبُرسله وبكتبه من أهل الكتاب وغيرهم، لأن كلمة "من» في هذه الآية الكريمة تفيد العموم.

=١٩=

الله الواحد الأحد هو باعث الرُسل والكتب

من أركان الإيمان في الإسلام: الإيمان بالله، فهو محسوس من وجود مخلوقاته المحدودة العاجزة الناطقة على وجوده - سبحانه وتعالى- قال مخاطباً الكفار:﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦] وهذه المخلوقات التي نشاهدها تدل على وجود وعظمة خالقها تعالى عن التشبيه والمماثلة، وصفاته - سبحانه وتعالى- تُؤخذ من القرآن الكريم كما وردت، وتدل على كمال القدرة المطلقة، التي لا يشاركه فيها مخلوق وذلك لأنه الخالق الوحيد للكون وليس كمثله شيء.

فصفاته توقيفية لا تُؤخذ إلاّ من النصوص القطعية الثبوت، وكلها تدل على أنه الواحد الأحد لا شريك له في ملكه.

قال الله - سبحانه وتعالى- مبيناً عدم اتفاق شريك له في الألوهية والربوبية مع وحدانية الحكم الطبيعي المطلق: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقد بين القرآن الكريم الحقيقة بأعلى أنواع الحجج الدامغة، والبراهين البينة، والآيات الواضحة، على وحدانيته - سبحانه وتعالى- ورغم هذا كله، فهم يتبعون الهوى فيدعون أن لله ولداً، وأن له شريكاً في الملك - تعالى الله الواحد الأحد الفرد الصمد عن هذه الصفات فيقول - سبحانه وتعالى-: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ ...﴾ [المؤمنون: ٩١].

ويعقب بالبرهان القاطع، والبينة الواضحة فيقول:﴿... إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ...﴾ [المؤمنون: ٩١].

أي لا نفرد كل إله بما خلق، ولظهرت المنازعات، وتناقض الخلق، ولحكم القوي الضعيف، والضعيف ليس إله.

وبما أننا لم نعلم ولم نشاهد أي مخلوق يدل عل تعدد الصانع أو اختلاف الصنعة، إذن فالخالق واحد، والمدير واحد، والحاكم واحد:﴿...سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١] .

فالرب الخالق القوي منزه عما يصفه به هؤلاء الجهلة المشركون، قال - سبحانه وتعالى-: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٢ - ٤٤].

فلو كان لله شركاء في ملكه وحكمه لحصل إختلاف في إدارة الكون ولما شاهدنا هذا التناسق، ودوران الكواكب المنتظم وما حوته الذرات والخلايا من نظام دقيق الصنعة.

ولطلبوا مغالبة الرب العظيم، ذي العرش المكين، كما يحصل لحكام الأرض كل يريد السيطرة والعلو والتجبر، وهذه الأمور غير ملاحظة في الخلق ولا في إدارة الكون.

إذن فالرب واحد أحد، وهو المرجع والصمد، بدون منازع ولا مُغالب: ﴿...وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٤٣] تطيعه جميع مخلوقات الكون من السماوات السبع إلى الأرض وما فيهن، ويخبرنا - سبحانه وتعالى- أن المخلوقات من الجمادات إلى الأحياء كلها تنزه الرب وتقدسه وتعبده ولكن لا نفق ولا نفهم ما تقوله لاختلاف الخلقة والألسن.

وهو الحليم الغفور، ومن حلمه - سبحانه وتعالى- يؤخر تعجيل العقوبة على من يخالف أمره لعله يتوب أو يتفكر، فيتعظ، فيهتدي.

وما دامت جميع المخلوقات تعبد الله الذي خلقها ونظمها، فالبشر في الحاجة لهذا التنظيم من الرب الخالق، فكانت الحاجة للرسل وللكتب، للهداية ولتحديد علاقة هؤلاء البشر مع خالقهم، ومع أنفسهم ومع غيرهم من الناس.

كما أننا في حاجة للرسل لكشف بعض المغيبات والإجابة عن بعض

التساؤلات التي لا يمكن للبشر الإجابة الصحيحة عليها، والتي يهمنا معرفتها حتى لا نضل فنشقى.

والبحث فيما وراء المحسوسات في هذا الكون لا يوصلنا إن تُرك الأمر لعقولنا القاصرة إلاّ لمتاهات وخيالات وفرضيات يصعب تفسيرها وكيف لنا أن نفسر ما لم نحط به خبرا.

وما لم يقع عليه حسّنا فقد يؤدي بنا هذا الأمر للكفر والشرك، فكل ما هو نقلي من أركان الإيمان فمصدره الكتب السماوية ورُسل الله، وهو العلم اليقين.

كما أن الحكمة تقضي بإرسال الرُسل، وذلك لنعرف كيف نرضي هذا الخالق المحاسب لنا بعد الموت يوم القيامة وكيف نشكره على رحمته بنا ولطفه ونعمائه.

ثم، ولكون عقولنا قد خلقت مختلفة في حكمها على الأشياء والأعمال، متناقضة، ودليل تناقضها تلك الأنظمة الوضعية التي يحتكم إليها الناس في هذه الأرض.

فما هو قبيح في بلد حسن في بلد آخر وما هو قبيح في زمان حسن في زمان آخر فهذا يستدعي نظاماً من خالق النفوس، ليكون الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع فمن خالف هذا الشرع فله النار، ومن أطاع فله الجنة ولم يخلق الإنسان سدى بل حياته إبتلاء واختبار فأرسل - سبحانه وتعالى- الرُسل، لتمام العدل، ولتنظيم علاقة الإنسان بربه، وبنفسه، وبغيره من الناس والمخلوقات.

وهذا التنظيم لا يفرق بين جنس وجنس ولا أرض وأرض ولا زمان وزمان بل الحق يجب أن يتبع دائماً: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الحج: ٧٥].

هؤلاء الرسل الذين إختارهم رب العزة خالق النفوس والعقول، هم صفوة خلقه، جاءوا مبشرين بالخير لمن أطاع أمر ربه، ومنذرين من عصاه قال - سبحانه وتعالى:﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ...﴾ [النساء: ١٦٥].

وأول هؤلاء الأنبياء هو آدم «أبو البشر» - عليه السلام- قال الله - سبحانه وتعالى- يخبرنا عن هؤلاء الرسل:﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وهؤلاء الرسل هم النور الذي يهدي الأمم سواء السبيل وهم القدوة في عمل الخير والصلاح، يُرسلون بالحق، ويقيمون العدل، فمن تبعهم وسار على نهجهم نجا ومن خالفهم واتبع سبيل الشيطان غوى فهلك.

وما كان يُرسل رسول أو نبيّ إلاّ ويُؤيد بما يثبت نبوته فيأتي بمعجزة بإذن الله تجعل الناس يؤيدونه، وتميزه عمن يره ممن يدّعون النبوة كذباً وبهتاناً.

فالمعجزة أمر خارق لطبيعية الأشياء والأعمال، وتحدٍ لمن خالف، وسنداً ونصرة لذلك النبيّ قال الله سبحانه وتعالى- :﴿...وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

وحتى يحدث الاطمئنان والثقة بما ينقله لنا رسل ربنا - عليهم السلام- عصمتهم في النقل عن ربهم، وكيف لا وهم المصطفون الأخيار، فهم ولا شك معصومون في التبليغ وهو القاسم المشترك بينهم جميعاً وهم حملة الأمانة، الدعاة الرحماء.

ونتيجة لهذه الثقة المطلقة، لا يجوز في حق رسل الله التكذيب، ولا الشك فيما نقل عنهم، حقاً وصدقاً، ومن كفر بما نُقل عنهم، فقد احتمل بهتاناً عظيماً.

قال الله سبحانه وتعالى في وجوب طاعتهم: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. فإطاعة الرسول واجبة، وجزاؤها رحمة الله، وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿...وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١] فقد وصف عذاب الله لمن يُؤذي رسوله الكريم بأنه عذاب أليم زيادة في التحذير من هذا العمل المُنكر ولا يتفق ارتكابهم الكبائر - كباقي البشر- بعد أن يُرسل إليهم، مع كونهم أنبياء مختارون من علاّم الغيوب، كما لا يتفق عصمة التبليغ مع الاجتهاد، لأن المجتهد يُصيب ويُخطئ، وهذا لا يتفق مع الثقة التامة في أمانة التبليغ عن رب العالمين قال - سبحانه وتعالى- في أقوال أنبيائه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤] وقوله - سبحانه وتعالى- لتأكيد ثقة التبليغ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

والقرآن الكريم، آخر الكتب السماوية المهيمن والناسخ لما سبقه من كتب

وأحكام، إنه مُعجز إلى أن تقوم الساعة متحدياً الإنس والجن أن يأتوا بمثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣ - ٣٤] والكتب والرسل الإيمان بها نقلي ومثلها الإيمان بالمغيبات والملائكة واليوم الآخر والجنة والنار نؤمن بها نقلت لنا الكتب السماوية والرُسل.

والقرآن الكريم مُعجز والفاظه عربية، ومعانيه إنسانية والتحدي له لا يكون إلاّ بالعربية، كما أنه لا يسمى قرآناً إلاّ إذا كتب باللغة العربية، ومع هذا هو حفظ حدود لا حفظ حروف.

والتحدي في معجزة القرآن الكريم عام في جميع الأماكن والأزمان قال – سبحانه وتعالى-: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] وضمير الفاعل في أفعال هذه الآية الكريمة يفيد العموم فالتحدي لعامة المخاطبين قديماً وحديثاً إلى أن تقوم الساعة.

ونظمه طراز خاص به، فلا هو شعر، ولا هو نثر، ولا عهد للعرب باسلوبه، وقد جمع من الفصاحة والبلاغة ووضوح المعنى ما يجعله نسيجاً فريداً من نوعه يعجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله.

قد أجمع العالم من عرب وعجم أن مصدر نقل القرآن الكريم إلينا، هو محمد ﷺوبمقارنة أحاديث متواترة عنه -ﷺ- نرى الفرق الظاهر لكل ناقد بين كلامه وهذا القرآن الكريم.

ثم أنه عاش ما يقارب من ثلثي عمره بين أهله وقومه في مكة المكرمة، وبين من خالفوه وقاوموا دعوته من مشركي قريش أقول لم يسمع شيئاً منه دعوة للدين، أو مجرد فكرة أو دراسة في هذا الأمر وللعلم هو أميّاً وليس له صلة مع كتب أهل الكتاب المرسلة من الله وعلومهم ودعاتهم وتجمعاتهم.

تحدى القرآن الكريم العرب وهم أهل البيان والبلاغة والفصاحة، أن يأتوا بمثله، أو حتى بسورة من مثله، ورغم ثبوت محاولتهم فقد عجزوا ولا يزالون عاجزين، ومحمد من العرب فالتحدي يشمله، ومهما سما العبقري –لو فرض أن محمداً عبقري- فلا بد من وصول غيره إلى ما وصل إليه أو يقترب منه، وكل هذا لم يحصل وإلى الآن.

فالتحدي موجود - ورغم تقدم العلم والمعارف- ولم يستطع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن، لا من العباقرة ولا غيرهم، رغم المحاولات المتتالية.

- نقل لنا هذا القرآن الكريم كثيراً من المغيبات، وعلم المستقبل، ولم يظهر

رغم ما نحن فيه من تقدم علمي واكتشافات.

- أي تناقض بينه وبين العلم الحديث المتقدم الصحيح وللعلم القرآن هذا لم يخصص لتدريس العلوم ومع هذا عندما نقارن ما ذكرته الآيات من علم الفلك أو الطبيعة المحيطة بنا أو علم التشريح، أو ما ذكرته عن تاريخ الرسالات والأمم السابقة، لا نجد أخباراً أو علوماً تتعارض مع المعلومات الصادقة الصحيحة.

وأما عن علم الغيب والمستقبل، فلم يظهر شيئاً يُوحي أن واضع القرآن هو بشر محدود المعرفة والعلم، بل ما ذكره القرآن قد حدث بدون تخلف، ولو كان بشراً لأصاب وأخطأ، لما هو ديدن البشر في علم المستقبل - شمول المعالجات لكل ما يهم الإنسان، والإحاطة بحاجاته - النفسية والجسدية- ومعالجتها بصورة واحدة لم يؤثر فيها لا الزمان ولا المكان.

فمن أمور تتعلق بسياسة الدولة مع غيرها ومع أفرادها في حالتي السلم والحرب، ورعاية الدولة مع غيرها ومع أفرادها في حالتي السلم والحرب ورعاية الدولة لكل فرد فيها مع ترتيب علاقته مع دولته، وإلاّ يكون كالسن في الدولاب في مجتمعه والمحافظة على وحدة الأسرة.

وتنظيم الاقتصاد والاجتماع والتعليم بكل عدل ومساواة والعقوبات والحدود ونشر الدعوة، وتحطيم الحواجز المادية وحصون الأعداء، وإعداد الجيوش، والمحافظة على الحدود والثغور، مع مراعاة مكونات الفرد من أخلاق وعبادات ومطعومات ومشروبات وملبوسات ومعاملات.

فالقرآن الكريم شامل ومحيط بكل متطلبات المجتمع والفرد مع حل لكل خلاف قد ينشأ بدون تمييز وبكل عدل وتنظيم المشاعر، والنفس الإنسانية، وجعل أُخوة الاسلام هي الرابطة المتينة لمجتمع من أصول وقوميات متباينة، وأوطان متعددة، وعادات وأعراف متناقضة، أقول: لا يمكن لفريق من العلماء أن يجمع ما حوته دفتي هذا الكتاب الكريم بينها في عقود من التجارب والأبحاث بل في قرون فكيف بفرد أميّ يتيم فقير أن يقوم بتأليف هذا الكتاب فلا محمد ولا مجتمع العرب يستطيع تجميع ما حواه القرآن الكريم من نظم ومشاعر وأفكار، زيادة على ما حواه من علوم الأمم الماضية، بل وما ستصل إليه أمم المستقبل من علوم.

قال الله - سبحانه وتعالى-:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣] ففي هذه الآية الشاملة لما سيحدث في علم الفلك وعلوم النفس الإنسانية وبما سيكشفه

الإنسان من أسرار الكون وما حواه من العجائب بما يثبت وبكل وضوح صدق القرآن لجميع البشر للمسلم والكافر.

ومن هنا يحصل الاطمئنان لجميع ما حواه هذا الكتاب المقدس من معلومات، أُرسلت من خالق الخلق، من الله القدير الحكيم العليم، صيغة بأبلغ وأوضح عبارات عرفتها العرب: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ ...﴾ [النمل: ٩٣].

ومن هنا نؤمن بصحة ما بين دفتي هذا الكتاب الشريف ونطمئن لما ورد فيه سواء تصوره عقلنا أم لا لإيماننا بصدق الأساس ومن يكفر بآية منه، فإنه كافر - ولا شك- فكل ما ورد عن رسول الله عيسى ابن مريم في هذا الكتاب هو حق وصدق بل لا نثق بغيره إلاّ ما ورد عن رسول الله محمد ﷺ من أحاديث لا تتعارض مع القرأن الكريم.

وقد بشرت الكتب السماوية بظهور وبعث نبيّ يكون خاتم النبيين، ووصفته تلك الكتب ووصفت أمته الماجدة استجابة لدعوة أبونا إبراهيم الخليل قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

وقد استجاب رب العالمين الرحيم بعباده لإبراهيم وابنه اسماعيل - عليهما السلام- هذه فقد كان من ذريتهما أمة مسلمة طائعة، حاملة لراية التوحيد في الأرض، منادية «الله أكبر» على مآذن الأرض، والفضل بيد الله، الهادي سواء السبيل - سبحانه وتعالى- كما قالا في دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ...﴾ [البقرة: ١٢٩] فاستجاب رب العزة، ورحم أمه أُميّة، فرفع ذكرها، وأعزها وأعز لغتها العربية، لغة القرآن الكريم.

ويظهر الإعجاز في هذه الآية الكريمة حيث بعث سبحانه وتعالى رسولا واحداً وليس رسلاً لذرية اسماعيل - عليه السلام- وقد كانت معجزة هذا الرسول ﷺ هي كتاب يُقرأ، وحكمة تتناقلها أمته جيلاً بعد جيل حيث طهرهم المعز المذل من الشرك فاستسلموا لله طائعين وكل هذا من فضل الله ورحمته.

قال محمد رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين» مسند الإمام أحمد.

فمحمد ﷺ هو الرسول الذي بشرت به كتب أهل الكتاب والقرآن هو النور الذي ينير للبشرية طريق السلامة والخير وها قد مرت بضع عشر قرناً ولم يُرسل كتاب لأهل الأرض غير القرآن ولم يُرسل لنبيّ غير محمد ﷺ.

=٢٠=

القرآن الكريم هو المرجع الصحيح

لخبر رسول الله عيسى ابن مريم عليه السلام

ومن أهم مميزات القرآن الكريم: أنه يبين وبكل صدق ووضوح - ما اختلفت فيه الأمم السابقة- فقد جاء بالقول الفصل، والقصص الحق، فيما اختلفت فيه وخاصة ما يتعلق برسول الله عيسى ابن مريم - عليه السلام- وذلك للإختلاف الشديد فيه بين الغلوّ لدرجة الإدعاء بأنه إله وبين التطرف في تحقيره بأنه ابن زنا ومن أم زانية.

وما اكتنف حياته ورسالته - عليه السلام- ثم صعوده إلى السماء –بأمر ربه- وما لف تلك الحياة منذ الطفولة إلى الكهولة، من معجزات وشبهات واختلاف أهل الكتاب فيه وفي رسالته وفي صعوده إلى السماء. ثم تفرق آراء النصارى فيه وفي صلب شبهه.

وقد نقل لنا القرآن الكريم ما يغنينا عن سؤال أهل الكتاب، وأصحاب الديانات السابقة، ففيه تبياناً لكل شيء وإجابة عن أي سؤال، يتعلق بخبر السماء، وما وراء الكون المُشاهد، ومصير هذه الكائنات ومنها الإنسان بعد موتها.

قال الله - سبحانه وتعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦] فرسول الله محمد ﷺ ينير بأفكاره وحكمته الطريق المستقيم، طريق المهتدين المخلصين الطائعين، وكل هذا بإذن الله وإرادته - سبحانه وتعالى-.

وقد ذُكر تكريم آل عمران من بني إسرائيل وأجدادهم من آل إبراهيم - عليه السلام- وهم أرومة شجرة النبوة المباركة الطاهرة التي كان من ثمرها رسول الله عيسى ابن مريم - عليه السلام- وغيره من أنبياء بني إسرائيل.

كما ذكرت أمه وبالتفصيل في كتاب الله فهي أول أُنثى تُنذر لخدمة المسجد المبارك ولله حكمته في قبول هذا النذر، وتلك الخدمة، وذلك لتُعرف وتشتهر عند الناس ورواد ذلك المسجد المقدس فهي المعروفة لدى الجميع بالسلوك الحسن، والسيرة الطيبة، كما ويُضرب بها المثل في العبادة والعمل الصالح.

ثم هي مرآة العبّاد والمؤمنين المصلين والزائرين لذلك المسجد الطاهرة يلحظ سلوكها الجميع، كما وتُعد خُطاها، وتحصى أخطاؤها من قِبل الجموع المحتشدة في أروقة ذلك المسجد المبارك.

ورأيّ الإسلام فيها أنها أشرف وأكرم نساء الأرض، ومن أزواج رسول الله محمد ﷺ في الجنة وهذا عكس رأيّ اليهود فيها.

كل هذا - والعلم عند الله- يكون تهيئة لمولد طفل يُخلق في أحشائها وبدون أب، وذلك لقطع ألسنة من يتهمها بالفاحشة، ومن يلوك سيرتها من الفساق والفجار والكفار، وذلك عند حدوث تلك المعجزة التي احتارت في تفسيرها عقول بني إسرائيل، وتناقلت أخبارها الركبان، واختلفت فيها الآراء من مُغالٍ في التكريم أوصله خياله لأن يدعي لعيسى الألوهية ومن يطعن في قصة مولده ويتهم أمه بالفاحشة ويتهم هو بالسحر.

طفل يُولد بدون أب، في مجتمع قوم بُهت، امتزج الحسد والكيد والشك والكذب في عروقهم مع دمائهم.

ومن الإرهاصات التي سبقت هذه المعجزة "طفل بلا أب»تسابق أبناء الأنبياء وأحفاد الصالحين من بني إسرائيل لحضانة وخدمة وتربية هذه البنت الطاهرة المؤدبة التي أوقفتها أمها على خدمة ذلك المسجد المبارك وما سبق أن أُوقفت أنثى من بني إسرائيل على خدمة مسجد قبلها.

ثم تكريم الله لنبيه زكريا - عليه السلام- بالإشراف على تربيتها وما لاحظه - عليه السلام- من تكريم الله لها فيرزقها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، كنوع من التكريم والتفضيل لها على غيرها

ثم استجابة رب العالمين لدعاء نبيّ الله زكريا - عليه السلام- الذي طمع في كرم الله، عندما شاهد ما أكرم - سبحانه وتعالى- مريم العذراء به من خير وبركة حيث وهبه الله ولداً على حين بلغ سن اليأس وأمرأته عاقر وهذه أيضاً من إرهاصات النبوة، ومقدمة شيقة لميلاد طفل بدون أب، وحمله ووضعه مخالفاً لطبيعة البشر ثم كلامه ودفاعه عن أمه وهو طفل في المهد يدفع عن أمه تهمة هي أعظم وأثقل تهمة تواجه أنثى في أي زمان وأي مكان.

ويذكّر بني اسرائيل بمستقبل رسالته، وما أكرمه الله وأكرم بني إسرائيل به، بكتاب ينير للمؤمنين سبيل الرشاد، ويهدي القلوب الحائرة لطريق الخير والفلاح والسلامة.

الإنجيل فيه الرحمة والسكينة، نعمة أنعمها الله على بني إسرائيل، حيث خففت عنهم بعض ما كبلتهم به أحبارهم زوراً وبهتاناً وتخليطاً من عند أنفسهم،

وحسب هواهم ونفوسهم الشاذة مدعية أنه من أمر الله، وما هو من أمر الله في شيء.

وسار الإنجيل خط ما سبقه من كتب السماء، وذلك بتوحيد الله في العبادة، وعدم الشرك وإبراز ما نادت به من صفات الله الثابتة - سبحانه وتعالى- عن التشبيه والتشكيل، ليس كمثله شيء.

كما بشر هذا الكتاب بنبيّ آخر الزمان، خاتم النبيين ووصفه بدقة، خُلقاً وسلوكاً بل وسلوك صحابته وأمته الماجدة، الأمة الوسط، حاملة راية دين التوحيد إلى أن تقوم الساعة.

وقد ترقب أهل العلم من الأحبار والرهبان مبعث هذا النبي الذي بشرت به الكتب، كما، كما أنهم عرفوا أنه سيكون من الأمة الأميّة من العرب وقالوا أنهم سينصرونه عند قدومه وينضمون لحزبه، ويحاربون أعدائه من عبدة الأوثان.

وعندما بُعث - ﷺ- وطلب النصرة، قلبوا له ظهر المجن، بل ناصروا المشركين وساندوهم وانضموا لحزبهم حسداً وكيداً ومكراً.

ومنهم من آمن بتلك البشرى، وساند المسلمين، وساعدهم في محنتهم، كنصارى الحبشة وملكهم النجاشي الفاضل، فقد أكرموا وعطفوا على من لجأ إليهم من صحابة رسول الله، عند هجرتهم المشهورة للحبشة، كما أسلم بعضهم.

وقد آمن كثير من الرهبان الذين كانوا قد هربوا من الحكام الظلمة، ومن الفاسقين من بني إسرائيل، والجبابرة من الروم أقول هربوا إلى الجبال والصحراء والخلاء من الظلم.

وعندما أنار الله الأرض بنور الإسلام أسلم هؤلاء أثناء فتح بلاد الشام والحيرة، تركوا صوامعهم وبيعهم التي كانوا قد اتخذوها دوراً للعبادة وملجأ يأكلون من بقول الرض، ويتعبدون بحرية.

ما كان لإبليس اللعين أن يترك آدم وأبناءه يعيشون في سكينة ووئام، وأمان ووفاق بل وكما وعد سيسوقهم إلى طريق الضلال، ويؤزهم إلى الشر أزا بجعل اليقين عندهم شكاً، والضلال هداية، والعلم جهلاً والصواب خطأ، والفاحشة فضيلة، والحق باطلاً.

فما إن وُلد لبني إسرائيل ولد بدون أب نبيّ رسول يتكلم في المهد - بإذن ربه- فيدافع عن أمه، وعن نفسه، ويبشر بني إسرائيل بكتاب فيه الخير والصلاح والرحمة من الله، حتى قلب لهم الشيطان الحقائق، وهداهم للسير في مستنقع الشك والتردد، ووسع لهم حقل الشبهات، فطُمست الحقائق تحت براكين الشك الفاسدة، وعميت البصائر قبل الأبصار ومن هذه الشبهات مايلي:

- شبهة مولد ولد بدون أب فضخم هذه الشبهة حتى غطت نور الحقيقة عند بني إسرائيل فأتهموا مريم العذراء بالفاحشة، رغم وضوح المعجزة، ودفاعه - عليه السلام- عن نفسه وعن أمه بأن تكلم وهو في المهد صبيا بإذن ربه.

فغطوا الحقيقة بكفرهم، مدعين أنه لا يعقل خلق طفل بدون أب، وأتهموه بالسحر كما اتهموا امه بالزنا، وغالى النصارى في أمره - عليه السلام- فألهوه ظناً منهم أن هذا الأمر لا يكون إلاّ لإله.

فكان رد رب العالمين عليهم ردّاً مقنعاً، لمن استنار عقله فاهتدى حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقد أجمعت الكتب السماوية، ومن اعتقد بها على أن أبا البشر آدم - عليه السلام- ليس له أب ولا أم ومع هذا لم يؤله - عليه السلام - واعتبر مخلوق كباقي المخلوقات لخالق قادر قدرة مطلقة، يقول للشيء كن فيكون.

- شبهة إحيائه - عليه السلام- لبعض الموتى وهذه كانت من معجزاته التي أذن بها الله، وهي ليست بدعة في عالم المعجزات، بل هذ هي طبيعة المعجزات فهذه عصا رسول الله موسى - عليه السلام- كانت تتحول وهي جماد إلى حية تسعى، ثم عندما يلتقطها - عليه السلام- ترجع لأصلها عصا من الخشب - بإذن الله-.

وقصة البقرة المشهورة، وإحياء الميت المقتول من بني إسرائيل، وكلامه، مع رسول الله موسى - عليه السلام- ومع هذا لم يُؤله موسى - عليه السلام - واعتبر ذلك من المعجزات.

- شبهة قوله - سبحانه وتعالى- في مريم العذراء: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا...﴾ [الأنبياء: ٩١] فقد تمثلت الشبهة في كلمة "روحنا» علماً أن كلمة "روح» وردت بمعاني مختلفة ومع هذا وردت في خلق آدم - عليه السلام- حيث قال الله - سبحانه وتعالى-: ﴿... ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ ...﴾ [السجدة: ٩] ومع هذا لم يؤله آدم - عليه السلام- بإجماع أهل الكتاب.

- شبهة نفخه في تماثيل طيور، فتدب فيها الحياة وتطير مُحلقة حتى تختفي عن الأنظار، وذلك بإذن الله ولا دخل للمخلوق فيه إلاّ أنه يُؤمر فيطيع، وهذا النفخ والطيران، ما هو إلاّ من باب الإعجاز، ولم يخرج عن طبيعة المعجزات.
- شبهة شفاء بعض المرضى من أمراض مستعصية على الطب كالبرص والعمى وذلك بإذن الله القادر على كل شيء. وهذه المعجزة تحديّاً لأعلى ما وصل له العلم في ذلك الزمان حيث كان علم الطب في أوجه.
- شبهة إخباره - عليه السلام- عن بعض المغيبات وهذه كانت طلباً تعجيزيّاً ممن سمع وشاهد معجزات رسول الله عيسى - عليه السلام-: فطلبوا منه كنوع من التعجيز أن يخبرهم عما أكلوا، وعما إدخروا في بيوتهم من طعام، وبوعيّ من الله كان يخبرهم، وهذا أيضاً نوع من المعجزات تأييداً لرسالته كما طلب قوم صالح - عليه السلام- أيخلق من صخرة ناقة فطلب من الله، فانبعثت ناقة من تلك الصخرة الجامدة تأكل وتشرب وتحلب وعاشت بينهم إلى أن عقروها فماتت ولم يؤله صالح - عليه السلام- بل اعتبر هذا الأمر من المعجزات.

وهذه صورة يعرضها القرآن الكريم: تخبرنا عن تعنت قريش قوم محمد ﷺ وتبين مقدار إهتمام مشركيها، ومجابهتهم ومعارضتهم وحرصهم على نقد كتاب الله، واجتماعهم مع كبار شعراء ونقاد البيان والبلاغة عندهم، كابن الزبعري، ذلك الشاعر المعروف المتصدي لهجاء المسلمين ورسولهم - وذلك قبل اسلامه- وقد اجتمعوا بعد نزول آية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وذلك كرد فعل لواقع هذه الآية في قلوبهم ونفوسهم فساروا طريق التشكيك والمكابرة والجدل والطعن من آيات الله.

وتصور هذه الآية الكريمة مقدار فرحتهم وعلو أصواتهم: إبتهاجاً بفكرة ظنوها برهاناً ودليلاً ومخاصمة ناجحةً ونقطة ضعف يلجوا منها للطعن في كتاب الله المتحدي لهم ولكن فألهم قد خاب، وسهمهم قد طاش قال الله - سبحانه وتعالى-:

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ

﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزُّخرُف: ٦٢].

وقد بينت هذه الآيات الكريمة الشيء الكثير مما خفي ومما حرفته كتب أهل الكتاب من سيرته وحياته ومعجزاته وحكمته كما بينت مقدار جرم وافتراء من ألهه من دون الله وأخبرتنا عن بعض المغيبات التي نورت وكشفت لنا عن بعض أحداث المستقبل وأشراط الساعة التي لا يعلمها إلاّ الله ومنها رجوع عيسى إلى الأرض ونسب عيسى عليه السلام – لأمه مباشرة بدون ذكر اسمه - عليه السلام- هو تبرأة لها من الفاحشة ولإشتهار الحجة سارت مسار المثل وقد ضربه ابن الزبعري ردّاً على قول الله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ [الأنبياء: ٩٨] والمخاطب هنا كما هو ظاهر الآية هم عبدة الأوثان من قريش وهذا ما تدل عليه كلمة "أنتم» ولكن الناقد عمم الآية ليسهّل طريق نقده حيث قال:

"عن عيسى نبيّ مرسل - عندكم- فكيف سُيلقى حَصَباً لجهنم مع الأصنام» التي هي ما أرادته الآية وعنته لهذا فرح كفار قريش وذلك الجمع لهذه الحجة، وضجت أصواتهم ظانين أن الناقد هذا قد وفّق وأصاب في حجته.

رغم ردّ رسول الله محمد ﷺ الردّ المفحم حيث قال له:«ما أجهلك بلغة قومك، أما فهمت أن «ما» لما لا يعقل» (تفسير روح المعاني ج٢٥ ص٩٤).

وروى محي السنة في المعالم: أن ابن الزبعري قال للرسول عليه الصلاة والسلام: أنت قلت: «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» قال: نعم قال: أليست اليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح تعبدون الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: بل يعبدون الشيطان فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فالأنبياء المصطفون محصنون حتى عن الفزع الأكبر.

ورغم ضعف هذه الحجة، وعدم إنطباقها على الواقع فقد استمرت قريش في غيّها وإعراضها عن الحق.

وقد ذمّ رسول الله ﷺ الجدل لذات الجدل بقوله: «ما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه إلا أورثوا الجدل» ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿...مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ...﴾ [الزُّخرُف: ٥٨] أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه.

وقالوا في حجتهم ومثلهم هذا المجافي للصواب، ما دامت هذه النار ستجمعنا مع عيسى وعزيز وهما أنبياء فنحن أعزاء راضون.

ويظهر من كلامهم هذا عدم طلبهم للحق بل هم راغبون في الجدل والخصام واللجاج والسخرية فقط، فكان ردّ رب العالمين عليهم: أن أخبرهم أن عيسى - عليه السلام- هو عبدٌ لله، أنعم الله عليه بالنبوة، وأكرمه بالرسالة والمعجزات، ثم بين أن له القدرة المطلقة، والمشيئة المتميزة - سبحانه وتعالى- فهو القادر على أن يجعل من اصلابكم ملائكة لا بشر تكون أبناءاً لكم، تخلفكم في عمارة هذه الأرض نعم، وقد خلق من ذريتهم خلفاء وقادة ودعاة وعلماء نشروا دين الله في المعمورة، وحموا بيضة الإسلام عبر العصور.

وتستمر هذه الآيات في الحديث عن رسول الله عيسى - عليه السلام- وما لفّ حياته من إعجاز، وما سيحصل معه في المستقبل فنزوله للأرض في آخر الزمان، سيكون من علامات الساعة، فلا تشكّوا في ذلك، واتبعوا رسول الله محمد ﷺ تهتدوا ولا تتبعوا الشيطان فتضلوا، لأنه العدو الملازم لكم منذ خُلق البشر.

قال تعالى مخبراً عن رسول الله عيسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزُّخرُف: ٦٣ - ٦٥].

البينات: المعجزات

الحكمة: الإنجيل وما حواه من تعاليم وعظات.

"بعض الذي تختلفون فيه»: هي الأمور الدينية لا الدنيوية

الصراط المستقيم: هو توحيد الله والسير حسب أوامره.

الأحزاب: الفرق من مؤمن ومشرك.

مراجع

الرقم	الاسم
١-	القرآن الكريم
٢-	الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
٣-	تفسير القرآن العظيم. لأبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ-دار احياء الكتب العربية.
٤-	تفسير البيضاوي – أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي دار الجيل سنة ١٣٢٩هـ
٥-	ثلاثون مؤمنة وصحابية كن مشاعل للنور –للمؤلف دار البيارق
٦-	روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني –لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي –الطبعة الرابعة – ١٤٠٥هـ – غدارة الطباعة المنيرية – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان
٧-	صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني – دار القرآن الكريم –بيروت – الطبعة الاولى-١٤٠١هـ
٨-	فتح القدير – محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٠هـ دار الفكر
٩-	في ظلال القرآن – للسيّد قطب – دار الشروق – الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ
١٠-	محاسن التأويل "تفسير القاسمي» - محمد جمال الدين القاسمي - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٣٩٨هـ
١١-	مختصر تفسير الطبري - اختصار وتحقيق - الشيخ محمد علي الصابوني د. صالح أحمد رضا - عالم الكتب الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ

١٢-	مختصر تفسير ابن كثير - محمد علي الصابوني - دار القلم - بيروت - لبنان مكتبة جدة الطبعة الخامسة.
١٣-	مختصر تفسير القرطبي - لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - إختصار ودراس وتعليق - الشيخ محمد كريم راجح - الناشر

	دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية – ١٤٠٦هـ
١٤-	الصحاح الست وبعض كتب الحديث الأخرى الموثقة.
١٥-	من مواقف القدوة في المحن- للمؤلف- الطبعةالثانية- دار البيارق.
١٦-	شرائح حذرنا الله منها- للمؤلف- دار البيارق.

الفهرس